تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي

يوم سقطت هرمز
مذكرات القائد البحري
روي فيريرا اندرادى

ترجمه عن الانجليزية دكتور/ عيسى أمين

من اصدارات:
مؤسسة الايام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع

السلسلة التاريخية
كتاب: تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي
يوم سقطت هرمز
ترجمة: د. عيسى أمين
رقم الإيداع في المكتبة العامة ـ البحرين
1970 د.ع / 1996م
من اصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع
المنامة ـ البحرين ص. ب: 3232
هاتف: 727111 فاكس: 723300

الاهداء

الى عشاق التاريخ ومحبي المعرفة

اقدم هذا الكتاب

تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي

يوم سقطت هرمز
مذكرات القائد البحري
روي فيريرا اندرادى

ترجمة د. عيسى أمين

البحرين يناير 1996م

مقدمة المترجم الى اللغة الانجليزية :

طبعت مذكرات القبطان الكبير روى فيريرا دي اندرادي لأول مرة في لشبونة 1647 بواسطة باولو كرايسبيك وانا اكاد اكون متأكدا انها لم تترجم من البرتغالية الى لغة اخرى بل اصبحت الطبعة الاصلية نادرة الوجود الآن. ان هذا الكتاب يقع في دائرة اهتمام الباحثين من قراء الانجليزية لانه يقدم عرضا تفصيليا لسقوط المدينة العظيمة هرمز في يد القوى الانجلوفارسية وفقدان البرتغاليين لها للأبد.

لذا اجد ان ترجمة هذه المذكرات سوف تعود بالفائدة الجمة على المهتمين بتاريخ امبراطوريتنا في الهند ونشأتها وسوف يفتح لنا الرؤية في احداث الفترة المذكورة من جانب آخر اقصد الجانب البرتغالي.

لا نعلم حتى الآن من هو الكاتب الحقيقي لكتاب المذكرات ولكن نعتقد انه ربما كان باولو كرايسبيك والذى يدعي انه حصل على هذه المعلومات من اوراق موثوق في مصدرها ومحتواها ورغم مخالفة بعض هذه المعلومات للحقيقة والتى قام باثباتها كل من الطرف الانجليزي والبرتغالي.

الا انها تحتوى على معلومات قيمة وتفصيلية تذكر لاول مرة.

ان عملا مثل هذا يثير الاجتهاد والتحليل ولكن حاولت قدر الامكان البقاء في اطار الموضوع واللجوء الى المصادر البرتغالية والانجليزية في نفس الوقت والتي يمكن ان تؤكد او تنفي الرواية المذكورة – ولقد جمعت في نهاية الكتاب بعض الوثائق البرتغالية المهمة والتى اعتبر رسالة ادوارد مونوك اهم واحدة فيها وتأتى اهميتها لوجود كاتبها في ميدان الاحداث واعطائه صورة دقيقة عنها.

C.R. Boxer

س. آر. بوكسر

لنكولن 31 يناير 1929

«ان سيف الرب وحاكم اسرائيل قد خدما البرتغاليين عندما كان شعارا للفتوحات البرتغالية ولكن وبسبب الاهمال والافتقار الى فن السلام وعظمة اسلوب الاستعمار ضاعت كل الممتلكات» (كرزون) في المسالة الفارسية.

ان هذه الجمل البليغة والقول الرصين والذى استخدم عدة مرات بواسطة كتاب تاريخ الخليج. يعتبر من احسن ما كتب وباختصار عن اسباب طرد البرتغاليين من الخليج.

اننا لا بد وان نعترف ان ما قاله كرزون يحتوى على الكثير من الحقائق ولكن لا بد لنا وقبل ان نرفع رايات التهكم والسخرية ان ندرك حقائق الامور وطبيعة الاوضاع انذاك اننا بتهكمنا هذا نكاد نقول ان اسلوبنا كان احسن من اسلوبهم في تلك الفترة الزمنية المذكورة. وعلينا ان نعترف بان ذلك البلد الذى تمكن من بناء البرازيل الحديثة دون التخلص او ايذاء السكان الاصليين (مثل ما قمنا به في امريكا الشمالية) ان عملهم هذا فيه دروس وعبر لنا نتعلم منها.

ان خطايا البرتغاليين اثناء فترة تواجدهم في الخليج لم تكن صغيرة لا يمكن الصفح عنها، وان ما قاموا به في ابادة جماعية ليس له ما يبرره: ولكن مقابل ذلك نستطيع ان نقول انه بفضلهم بقى الخليج آمنا من هجمات القراصنة وانهم ورغم بطشهم لم يسمحوا لاحد بالاساءة في استخدام سلطته وحتى انهم في بعض الاحيان كانوا مستعدين للتفاهم ومتسامحين.

لقد اعترف كل الرحالة في تلك الفترة الزمنية بعظمة وازدهار هرمز

وحجم التجارة الواردة والصادرة منها ويشهد على ذلك حجم الغنائم التى حصل عليها الحلف الانجلوفارسي عندما دمرت هرمز في 1622.

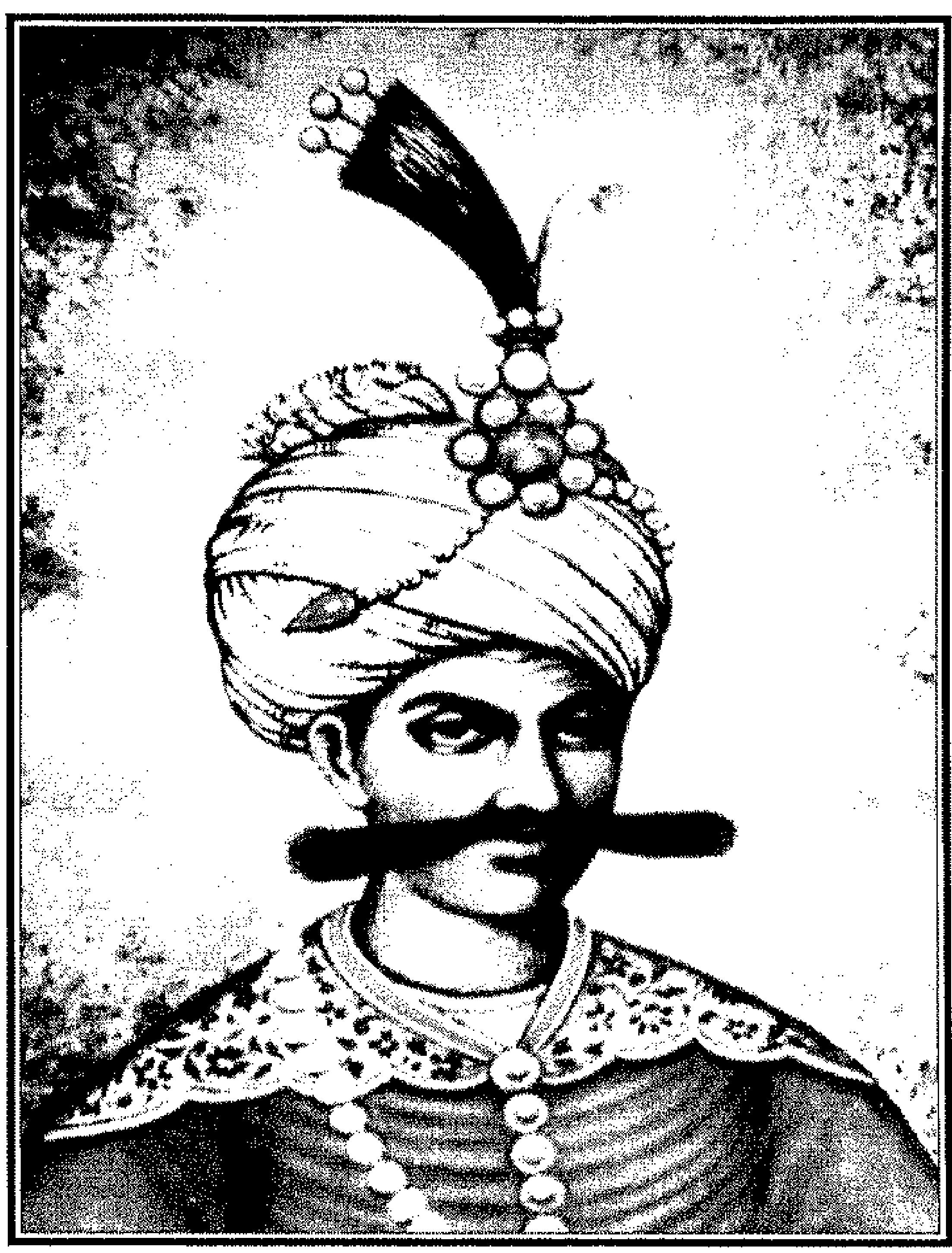
لقد كان سقوط هرمز بالنسبة لنا غروب شمس البرتغاليين واشراقة امل لتجارتنا في الهند مع توقعات سيطرتنا الكاملة على امور الخليج والتى لم تزل حتى يومنا هذا.

لقد كان هذا الحدث يحمل مرارة شديدة لدى البرتغاليين مما ادى الى انهيار سريع للوجود البرتغالي الا انه وفي اصعب الظروف واحلك الحالات واتعسها بقيت مجموعة منهم تدافع عن هذا الوجود بكل شجاعة وبروح مستمدة من ابطالهم السابقين ورواد الفتح البرتغالي في الشرق.

لقد كانت الضربة الموجهة للبرتغاليين في الخليج قاتلة، ورغم ذلك نجد انه يوجد هناك من رفض منهم الاعتراف بالهزيمة وقرر ان يقف محاربا اذ ربما بعمله هذا يستطيع ان يبقى المكانة المرموقة لأسم الفاتحين الاوائل في القرن السادس عشر.

وفي هذه الضربة الموجهة الى هرمز كان لنا درس يجب ان ندركه ونفهمه دائما فلقد كان سقوطها نتيجة حتمية لتراكم الاهمال الذى اصاب المبادىء الاولية للدفاع البري والبحري من قبل البرتغاليين.

مع بداية القرن السابع عشر كان التفوق البرتغالي في الخليج في اوج مجده وقوته يقف شامخا في مدخله ويلقى بظل خلفه يمتد الى مئة عام – في نفس الوقت كان الشاه عباس الأول في بداية حكمه، ومنذ البداية هذه كان ينظر الى مناطق النفوذ البرتغالي في الخليج بعيون طامعة –



الشاه عباس الاول

هذه المناطق التى تعتبر هرمز جوهرة التاج فيـها وقمة نشاطها التجاري واكبر تجمع عسكري فيها الى جانب مسقط والبحرين.

لقد استنفذت الحروب الفـارسية ضد الاتراك سنوات طويلة من بداية حكم الشاه عـباس (1587) وكان النصر حلـيفه عندما سـقطت نهاوند وتبـريز - وبـحلول عـام 1605 اسـتطاع الشـاه عـبـاس الاول طرد العثمانيين من المناطق الشمـال - غربية لفارس واصبح في وضـع احسن يتمكن فيه من التصدى للقوى المسيـحية والمقيمة في مناطق تابعة له من بعد احتلالها.

في بداية عام 1602 استطاع خان شيراز اسـترجاع البحرين للسلطة الفـارسيـة من حـاكم هرمز (والذى كـان العـوبة في يد ملك اسـبانيـا والبرتغال ورغم ادعاء الشاه عباس بعدم علاقته بهذا الحدث الا انه ابقى البحرين تابعة لبلاطه في فارس.

كانت البداية في البـحرين وكانت اول مواجهة للوجـود البرتغالي في الخليج بواسطة الفـرس الذين تشـجـعوا فـي استـقطاع مناطق اخـرى صغيره تابعة للبرتغاليين وبصورة تدريجية، واستمر هذا الحال الى عام 1607 عندما صعدت القوى الفارسيـة عملياتها ضد ملك هرمز وحلفائه وقامت باحـتلال ابار المياه قـرب جامبـرون (بندر عبـاس) والتى كانت احدى المصـادر الرئيسيـة للماء لمملكة هرمز، ورغم ارجـاعها في فـترة لاحـقة فـقـد قامت القـوى الفـارسـية ببناء قلـعتين صـغـيرتين قـرب التحصينات البـرتغالية على الساحل - (والتى كانت في حـالة سيئة من الترميم مع وجود بعض المدافع فيها).

ومع ظهور طلائع الشاه عباس في المناطق المحتلة بواسطة البرتغال وحتى قبل ذلك (1600) قام ممثلو الملك وضباط حامية هرمز بالتوسل الى البرتغال الدولة في الاستجابة للطلبات الموجهة من اجل الدعم البشري والعسكرى حتى يتم الاستعداد لاية مواجهة طارئة، ومع وعد الملك بالتنفيذ فانه لم ينفذ اي وعد منه انذاك حتى انه عندما قام خان لار بمحاصرة قلعة بندر عباس بواسطة 14000 اربعة عشر الف محارب سقطت هذه القلعة بعد مقاومة رمزية من حاميتها، وفشلت الحملة البحرية الموجهة من الهند لمساعدتها ووصولها متأخرة الى ميدان المعركة ومن ثم توجهها الى مسقط دون محاولة استرجاع قلعة بندر عباس (1).

وبسقوط قلعة بندر عباس تم عزل البرتغاليين في الخليج في جزيرة هرمز وابتدأ بالنسبة الى الفرس العد التنازلي للخلاص منهم.

بعد فقدان قلعة بندر عباس قرر البرتغاليون عقد معاهدة للصلح مع فارس فقرر ملك اسبانيا ارسال سفير من طرفه الى بلاط الشاه عباس والذى اصر (اي الشاه عباس) ان يكون هذا السفير من الامراء او الوجهاء وليس راهبا او رجل دين (لان خروج رجل الدين من صومعته مثل خروج السمك من الماء).

في عام 1619 وصل السفير (دون جراسيا دي سيلفا فيجورا)

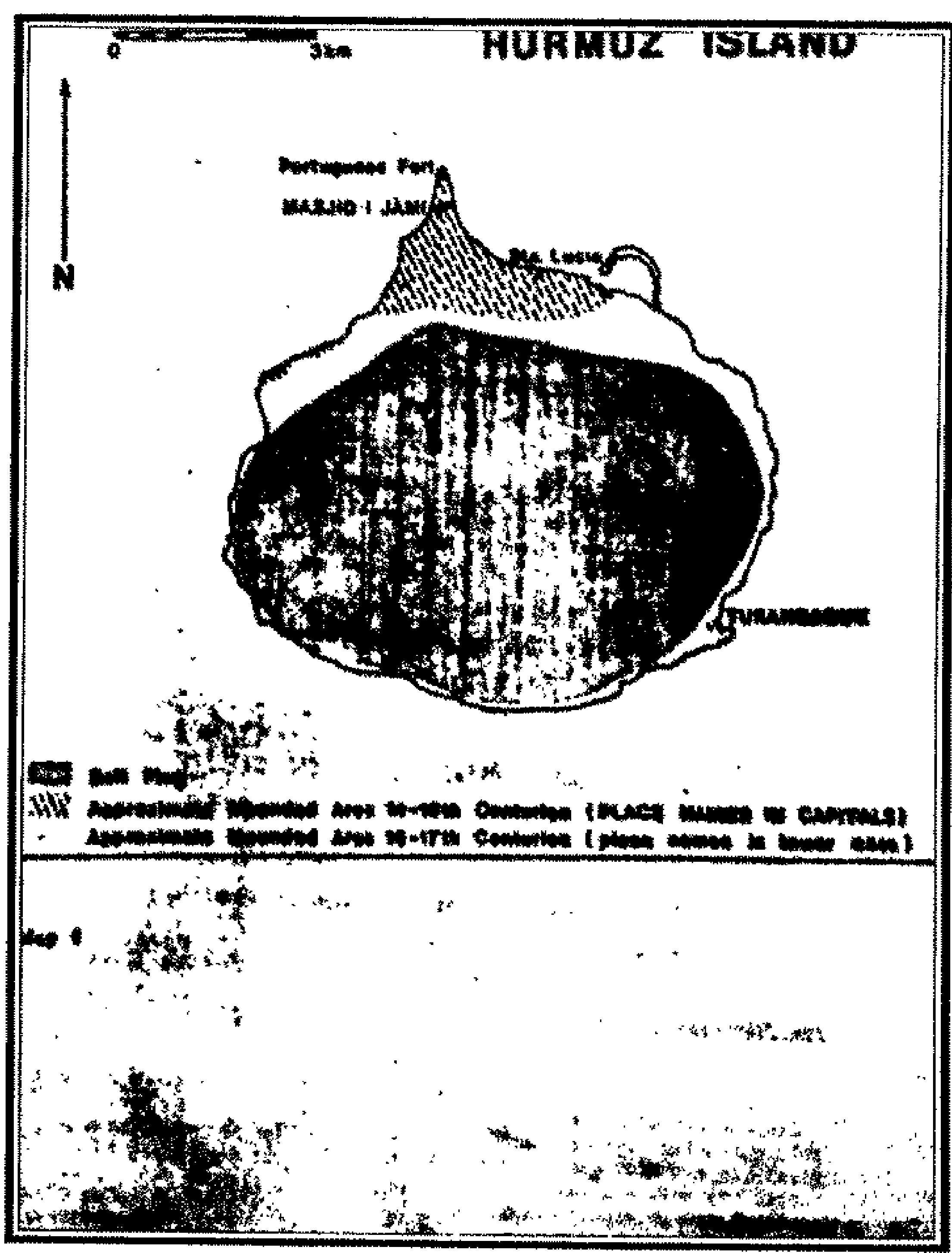
---

(1) كانت هذه الحملة تحت قيادة ماجويل ديسوزا بيمنتال والذى دمر الكثير فترة حكمه في مكاو (Miguel de Soasa Pimentel).

(Don Gracia de Silva figuroa) الى بلاط الشاه حاملا توجيهات من ملكه في اسبانيا بعقد معاهدة مع الشاه تحصل بمقتضاها البرتغال احقية احتكار تجارة الحرير الفارسي الى جانب الاصرار على استراجاع البحرين وبندر عباس للتاج البرتغالي (انذاك اسبانيا والبرتغال دولة واحدة).

كانت هذه الزيارة على ما يبدو ردا لزيارة قام بها مبعوث الشاه عباس النبيل الانجليزي السيد روبرت شيرل في (1616) والذى ارسل الى البلاط الاسباني في مدريد مؤكدا رغبة الشاه عباس في اعطاء صلاحيات تجارة الحرير الفارسي الى البرتغال (وكان القصد المبيت آنذاك من الشاه هو حرمان الاتراك من مرور التجارة الفارسية في اراضيهم، حيث كان البرتغاليون ينقلون البضاعة بواسطة الطريق البحري) هذا بشرط ان تقوم الحكومة البرتغالية بارسال اسطول تجارى من ممالكها في الهند يحمل الى فارس التوابل والبهارات والبضائع الهندية في سبيل المقايضة (1). وينجح السير شيرل في وساطته مع ملك الاسبان، وقام الاخير بارسال رسائله الى الدون جراسيا وقائد حامية هرمز (14 مارس 1619) يخبرهم بقراره ذلك ولكن مرة اخرى بشرط اعادة البحرين وبندر عباس الى النفوذ البرتغالي، الرغبة التى نقلها السفير الاسباني دون جراسيا الى الشاه عباس في آخر مقابلة له معه في اصفهان (1619) والتى ادت الى ثورة

(1) روبرت وانتونى شيرل مغامران انجليزيان من القرن السابع عشر وصلا الى بلاط الشاه عباس في 1598 وخدما في بلاطه في المجالات الحربية والدبلوماسية وزارا اوروبا ممثلين له فقام روبرت في (1608 – 1613) و (1617 – 1627) بزيارة اوروبا واعطي لقب فارس من قبل الملك جيمس وكان من القادة العظام بالجيش الفارسي ابان الحرب التركية.



رسم برتغالي لجزيرة هرمز وتبدو فيها القلعة في الطرف العلوي منها (القرن السادس عشر)

وهيجهان من قبل الشاه وتهديدات بخلع البرتغاليين من قلعتهم في هرمز واصدر فرماناً شاهنشاهياً يعطي الانجليز امتياز تجارة الحرير الفارسي (عن طريق البحر) دون غيرهم من القوى الخارجية.

فشلت مهمة دون جراسيا فغادر اصفهان الى هرمز ومنها الى جوا في ابريل 1620.

منذ عام 1613 ابتدأ التنافس الانجلو برتغالي في مياه الخليج ودب الخوف في قلوب البرتغال من وصول الانجليز الى عقد معاهدات تجارية مع الفرس.

ومع الحضور البرتغالي والقوي في الخليج كان يقابله حضور مماثل انجليزي في سورات يعززه التمثيل الدبلوماسي (سفير الملك جيمس الاول سير توماس رو (Sir thomas roe) في البلاط المغولي والذى لم يكن مقتنعا في التعامل مع الاسواق الفارسية. ولكن وباقتناع من مديري شركة الهند الشرقية في سورات باهمية اسواق فارس قاموا بارسال اول سفينة لهم في عام 1616 (التيمز) (thames).

فشل البرتغاليين في منع هذه السفينة من الوصول الى هدفها ولذا اسس اول مركز تجاري للانجليز في عام 1619 في جزيرة جسك ولغاية ثلاث سنوات تالية. في نفس العام (1619) يصل روبرت شيرلي الى لشبونة نائبا من الشاه عباس ويحصل على اتفاقية سلام بين الفرس والبرتغال في الخليج هذه الاتفاقية التى لم يكن ملك البرتغال واثقا منها لذا نجد انه في ربيع ذلك العام يرسل اسطوله القوي الى هرمز وذلك لسببين الاول هو حماية هرمز من الفرس والثاني منع الانجليز من دخول الخليج للعمل.

ارسل الملك هذا الاسطول تحت قيادة القائد البرتغالي روى فيريرا دي اندرادى والذي وصفـه الانجليز بانه طويل القـامة مهـذب قليل الحديث ويتميز بروح شجاعة.

حمل هذا الاسطول (المكون من خمسة سفن بين كبيرة وصغيرة)178 مدفعا والفين من الرجال المسلحين.

في يونيـو 1620 يصل هذا الاسطول الى هرمز بعـد فقـدان سفـينة واحدة قرب جزائر كرمبه (Kerimba) على ساحل شرق افريقيا وعدد كبير من الرجال في شتاء موزمبيق نتيجة المجاعة والامراض في 1619.

بعـد توقف بسـيط في هرمـز واجـراء بعض الاصـلاحـات على هذا الاسطول يتجه القائد فيريرا الى جسك في نوفمبر 1620 وذلك من اجل انتظار السفن الانجليـزية والتى تصل في ديسمبـر في كل عام الى هذه الجزيرة محملة ببضائع الهند الى فارس.

بعد رسـو سفن الاسطول (المكون من ثلاث سفن والف مـحارب) في رأس جزيرة جسك ظهرت ثلاث سـفن فـي الافق في 16 ديسمبر (كانت هذه السفن اثنتان من سفن شركـة الهند الشرقية هارت وايجل Hart، Eagle وسفينة برتـغالية تمت مصـادرتهـا بواستطهما) بعـد مشاهدة السفن البرتغـالية المصـادرة اقلع روى فيـريرا في اسطوله خلف السفن الانجليزية التى عـادت ادراجها الى سـورات مرة اخرى مـخلفة وراءها غنيمتها (السفينة البرتغالية).

قابـلت السفن الانجليـزية الهاربة من الخـليج في طريقهـا اثنتين من سـفن شركـة الهند الشـرقيـة لندن وروبك (London . Roebuck)

تحت قيادة القبطان شيلنج (Shilling) فقرر الجميع العودة الى جزيرة جسك ومواجهة البرتغاليين والتخلص من فخر البرتغال والذى حلف على الانجيل بانه سوف يطرد الانجليز من الخليج (روى فيريرا).

تقابل الاسطولان قرب جسك في يوم عيدالميلاد ولكن بدأت المعركة الحقيقية في 27 ديسمبر وتواصل القصف المدفعي الانجليزي تسع ساعات دون توقف. كانت الخسائر البرتغالية كبيرة بعد هذا القصف والذى في نهايته استطاع الانجليزي انزال بضائعهم في جسك ونقل 520 ربطة من الحرير الفارسي منها.

في اول يناير 1621 وصلت قوات جديدة لدعم الاسطول البرتغالي في هرمز وابتدأت المعركة الجديدة بعد هدوء الرياح (7 يناير) وخسرها البرتغاليين مرة اخرى فقد البرتغاليون مائة وستون جندي مقابل ثمانية فقط من الطرف الاخرى وكانت الخسارة البريطانية اقل من البرتغاليين نتيجة للقدرة الفنية لجنود المدفعية (مقابل الشجاعة والاقدام من البرتغال) مع فقدانهم لقدرة التصويب المدفعي وبعد عدة ايام من هذه المعركة الاخيرة توفى القائد الانجليزي شيلنج متأثرا بجراحه.

ويبدو ان سوء التخطيط والذي تمثل في الحرب اثناء رسو السفن البرتغالية اضافة الى ربطها ببعضها البعض كل ذلك ادى الى فقدان العدد الكبير من المحاربين في المعركة الاخيرة.

ومع تواجد الروح الشجاعة للقائد البرتغالي الا انه يبدو انه في نهاية الامر لم يتمكن من حث جنوده على مواصلة الحرب بعد ان تعرضوا للدمار الانجليزي والمتواصل ومع الاعجاب الكامل لاقدام القائد

البرتغالي بقى سوء تخطيطه للمعركة الى جانب الخليط العجيب من جنوده (الكجرات Cujrat والبحارة الهاربين) عاملا مهما في هزيمته المتكررة وخسارة البرتغال.

عاد روى فيريرا الى هرمز دون تعرض الانجليز له وقرر الاهتمام بالغرض الرئيسي من قدومه الى هرمز والذى كان الملك طلب شخصيا منه القيام به وهو بناء قلعة في جزيرة قشم لحماية بعض ابار المياه التى ستحتاج لها هرمز بعد فقدانها مصادر المياه في جامبرون (بندر عباس) بعد الغزو الفارسي في)1615(م.

جاء طلب الملك هذا في وقت عصيب حيث كانت قشم جزيرة تابعة لفارس وقد استطاع الشاه عباس نشر نفوذه وسيطرته عليها من جهة وازدياد الامور صعوبة لدى مملكه جوا لمعاناتها من الاضطرابات التى تثيرها اساطيل الانجليز والهولنديين من جهة اخرى وقرار بناء قلعة في قشم يعنى بالنسبة لفارس اعتداءً برتغاليا على اراضيها وذلك يؤدى الى معارك طويلة بين الطرفين وربما كان اجدى للبرتغاليين (وهم سادة الخليج حتى الآن) ان يحصلوا على المياه من مناطق اخرى متى ما ارادوا ذلك وتحت حماية اسطولهم ودون تدخل في اراضي فارس او مواجهات جديدة مع قوى اخرى.

وفي اجتماع القيادة البرتغالية في هرمز استمع روى فيريرا الى نصائح الكهل فرناو البوكيرك (حاكم الهند) وقائد حامية هرمز السابق دوم لويس ديسوزا Dom Luis – Fernad de Albuquerque de Sousa وقد حمل كل منهما افكار مخالفة لروى فيريرا ولكن اصرار

الاخير وعناده ووصول الاوامر من جوا وتأييد ملك هرمز له ادى الى تمسكه بقرارته في المجلس رغم وجود المعارضة له. في 7 مايو 1621 غادر روى فيريرا هرمز الى جزيرة قشم، في قوة بحرية تعدادها الفان جندي برتغالي والف من اللشكر الهرمزيين (العساكر) تحملهم ثلاثون سفينة كبيرة اشهرها نوسا سينيورا دي كونسيسوا وساو لورنسو Nossa Senhora de Conceicao و Sao Lourenco وصل الاسطول في الطرف الايمن من الجزيرة ليلا ونزل منه الجنود في الصباح الباكر.

كان ثلاثة الاف من الجنود الفرس في انتظار اسطول هرمز ولكن لم يتمكنوا من منعهم من النزول الى الشاطى وتكبدوا خسائر كبيرة في الارواح جراء ذلك.

ابتدأ روى فيريرا فور وصوله الى قشم بناء القلعة المطلوبة التى بنيت بواسطة الجنود المرافقين وجعل لها جدران عالية وسميكة وابراج واستغرق بنائها خمسة اشهر فقط.

وصلت نجدات فارسية من اليابسة الى الجزيرة بعد هزيمة الفرس الاولى فيها واصبح فيريرا محاصرا في قشم بقوة فارسية تتراوح قوتها من تسعة الى خمسة وعشرين الف محارب، وكان قائد هذا الحصار امام قلي خان والذى كان ممثلا لعمه حاكم شيراز، وسوف نقوم باعطاء وصف مفصل لاحداث جزيرة قشم والتى ابتدأت في يونيو 1621 واستمرت الى فبراير 1622 في صفحات تالية في هذا الكتاب وكان رد روى فيرارا على ذلك الدمار الشامل الذى قام به ضد موانىء

الخليج والسفن التجارية فيه وتطبيق سياسة الحرق والنهب بصورة عنيفة ضد القرى بين كنج – وجسك.

لقد كان روي فيريرا يهدف بعمله هذا وباعماله اللاانسانية من حرق وقتل للنساء والاطفال هو القاء الرعب في سكان الموانيء والسواحل الفارسية والقرى المجاورة كي لا يقوم خان شيراز باستخدامها او استخدام رجالها وسفنها في اكمال الحصار من جهة البحر مع الجيش البرتغالي المتمركز في جزيرة قشم.

لقد اثارت اعمال القتل والتخريب حقد السكان وتصميمهم على الانتقام ورغم التدمير الذى لحق بالسفن التابعة لسكان الساحل الفارسي فلقد تمكن هؤلاء السكان من اخفاء اربع مائة سفينة استخدمت عندما حان الوقت لغزو هرمز ولقد كان الفضل الكبير لعرب الساحل الذين كانوا يتمنون قطع رقبة البرتغاليين لما عانوه من مظالم وغصب وقتل وحرق على ايديهم ولكن ونتيجة للاعمال الرهيبة والتى قام بها روى فيرارا في البر والبحر وبسبب كل ذلك استطاع المذكور ان يبقى سيدا للبحر وان يبقى الطريق البحرى مفتوحا بين هرمز وقشم من اجل التزود بالرجال والعتاد.

حاولت القوات الفارسية عدة مرات اقتحام قلعة قشم ولكن انتهت جميعها بالفشل ومعه فقدت ارواح كثيرة ولذا قررت السلطة الفارسية بالاستعانة بقوى اخرى وتعتبرها حليفة في العملية وهكذا دخل الانجليز في الصراع الفارسي البرتغالي والذى انتهى بهزيمة البرتغال في هرمز والخليج.

بعد هذا الاتفاق وصلت تسع سفن انجليزية الى جسك في 24 ديسمبر 1621 من ميناء سورات في الهند وفي مقدمتها سفينتا القيادة لندن – وجوناس بقيادة ريتشارد بليث وجون ويدل Richard Blyth Johnweddell ,) وسفينتا الدعم الحوت والدولفين -Whale, Dol phinبقيادة (Isaac Stevenson) ونيكولاس وودكوك (Nicholas Woodcock) اما بقية القوة البريطانية في السفن ليون وشيلنج وروز وروبرت وريتشارد وكانت القيادة الانجليزية في سورات قررت في اجتماعاتها في 24 و 30 نوفمبر 1621 ان تقوم هذه القوات بمواجهة البرتغاليين ومهاجمتهم ايضا اذا استدعى الامر ذلك وذلك حسب توجيهات من الملك جيمس الاول ورئيس المجلس الاداري في سورات عندما وصل هذا الاسطول الى جسك تقدم خان شيراز بطلب العون من قادته (اي قادة الاسطول) ضد البرتغاليين ومهددا في نفس الوقت بانه في حال الرفض فانه سوف يصادر الحرير الذى في المخازن الانجليزية وسوف يلغى صلاحيات استثمار تجارة الحرير.

كان القادة الانجليز في وضع محرج فهم يدركون بانهم يواجهون عدوا قويا (روى فيريرا) ومتحصناً في قلعة قشم وانه اذا ما قاموا بهجوم ضده ربما تكون خسارتهم كبيرة هذا الى جانب التأثير السياسي الذى سوف يؤدى اليه هذا الهجوم وخاصة لو تحالفت بريطانيا مع المسلمين ضد دولة مسيحية اخرى تتسم علاقتها ببريطانيا (رغم المشاكل في الهند) في اوروبا بانها علاقة جيدة ولقد جاءت هذه المواجهة المحتملة في وقت قام الملك جيمس باعدام السير رالي (Ralegh) نتيجة طلب من اسبانيا.

ولكن اختلفت الامور في الشرق فالحرب الدائرة بين الفرس والبرتغاليين هى في مصلحة الانجليز والذين اذا ما رفضوا الدخول فيها الى جانب الفرس سوف تؤدى الى خسائر كبيرة لبريطانيا وتجارتها.

لقد قام القادة الانجليز بمناقشة طلب خان شيراز واخذوا كل شيء في الاعتبار وانتهوا في النهاية وبتشجيع من ادوارد مونوكس (Edward Monnox) وكيل شركة الهند الشرقية في فارس بالموافقة على طلب خان شيراز والالتحاق بالقوات الفارسية لهدف واحد ومشترك وهو هزيمة البرتغاليين في قشم وهرمز وتم الاتفاق على ذلك في (كوهستاغ 5 يناير 1622) حيث تم توقيع اتفاقية مع خان شيراز واستعد الاسطول البريطاني للحرب رغم معارضة الغالبية العظمى من البحارة الذين اعترضوا على ذلك قائلين (انها ليست عملية تجارية وانهم لم يتم اختيارهم للحرب بل للتجارة). ولكن ونتيجة للتهديد والوعيد والادعاء باعطائهم راتب شهر اضافي وافق البحارة على الاشتراك في هذه العمليات الحربية.

تحرك الاسطول من كوهستاغ في 29 يناير 1622 بعد ان تم تحميل الحرير على سفنه خوفا من نكث الفرس لعهدهم ووصلت السفن الانجليزية الى هرمز في مواجهة الاسطول البرتغالي الذى لم تخرج سفنه للمواجهة فقرر الانجليز التوجه الى جزيرة قشم حيث قام البرتغال المحاصرون فيها برفع الرايات البيضاء، لذا توجه ممثل شركة الهند في فارس (ادوارد مونوكس) الى الجزيرة لمفاوضة البرتغاليين فيها.

عندما وصل ممثل شركة الهند الشرقية الى قشم قام فيريرا باستقباله وابتدأت المشاورات التى احب البرتغاليين توجيهها الى تاريخ قديم وعلاقات قديمة كانت تربط بريطانيا بالبرتغال مؤكدا حسن النية والصداقة القوية بينهما فقاطعه مونوكس مدعيا ان ما جاء به الى قشم هو التشاور في امور حرب ابتدأت منذ عام وفقد فيها قائد الاسطول البريطاني والذى كان خادما للملك ومعه كثير من الرعايا الانجليز وان الامر اكبر من ان ينساه الانجليز».

فرد عليه فيريرا واخبره بان ما قام به كان تنفيذا لاوامر صدرت اليه وانه يعز عليه ان يتقاتل المسيحيين وانه لو قام بالاستسلام فانه يريد المسلمين من سكان الجزيرة ان يعاملوا بالمثل ولكن اخبره الانجليز ان الاسرى المسلمين سوف يكونون في مسئولية الجنود الفرس وسوف يتم تسليمهم الى الخان وهنا قرر فيريرا ان يموت الجميع معا ولن يقوم بتسليم المسلمين الى الخان قام مونوكس بعرض الامر على (الامام قلي بك) قائد القوات الفارسية والذى وافق على الابقاء على حياة المسلمين اذا ما تعهدوا بعدم مساعدة حامية هرمز الامر الذى رفضه روى فيريرا ومع هذا الرفض ابتدأ القصف الانجليزي لجزيرة قشم مبتدئا بألف طلقة من المدفعية نتجت عن وفاة خمسة وثلاثين من جنود حامية قشم.

لم تكن نتيجة هذا القصف ناجحة في هدم جدران القلعة لذا انزل الانجليز بعض المدافع الثقيلة الى البر والتى أدى قصفها المباشر الى هدم جدران القلعة. ومعها ابتدأت المحادثات مرة اخرى وانتهت في ان يغادر البرتغاليين ومعهم متاعهم الخاص هذه الجزيرة، حاول روي فيريرا في حث الجنود على مهاجمة الاعداء (الانجليز) ولكن رفض هؤلاء الجنود الذين قتلوا النساء والاطفال وصمدوا في وجه الهجوم الفارسي المتكرر

بل اعلنوا عصيانهم لقائدهم وبتشجيع من قادتهم قاموا باعتقال قائدهم فيريرا واثنين من مساعديه وتسليمهم الى الانجليز كرهائن مقابل بعض الشروط وكان الحظ أسوأ للجنود المسلمين الذين نقض امام قلي خان وعده وقتلهم جميعا وكذلك خالف الانجليز وعودهم وصادروا اسلحة الجنود البرتغاليين الثلاثمائة والذين كانوا جزءا من الفين جندى في حامية قشم فتوجه الجنود البرتغاليون الى هرمز بدل صحار ومسقط كما كان في الاتفاق السابق.

في 11 فبراير 1622 وبعد احتلال قشم توجه الاسطول الانجليزي الى جامبرون (بندر عباس) بعد ان ترك اربعة يمثلون شركة الهند الشرقية ضمن 600 جندي من جنود الحامية الفارسية في القلعة.

استقبل خان شيراز الانجليز في بندر عباس استقبال الفاتحين لما حققوه له في ثمانية ايام وعجزت عنه القوات الفارسية على مدى عدة اشهر قبل ذلك واصر خان شيراز على اخذ روى فيريرا والقادة الذين معه الى بلاط الشاه، ولكن رفض الانجليز وقام القائد البحري بليث والقائد البرى ويدل بارسال فيريرا الى سورات على السفينة الاسد (Lion) ترافقهم السفينة روز والسفينة ريتشارد ويشير احد مدوني الاحداث الى مجلس سورات قائلا «نرسل اليكم هدية وهى روى فيريرا وستة من قادته وبعض النبلاء المرافقين ونتركهم لقراركم وعسى ان تذكروا ما فعله فيريرا في اصدقائنا ومواطنينا والذين قاسوا الويل منه ومن مرافقيه في الجنوب»(1).

---

(1) المقصود هنا المعركة البحرية مع الانجليز قرب مكاو في 1630 والتي ادت الى احتجاز السفينة الانجليزية وحيد القرن (Unicorn)

في 19 فبراير توجهت السفن الانجليزية الباقية (ست سفن) ومعها عدد كبير من السفن الفارسية تحمل ثلاثة الاف رجل الى هرمز.

وصلت السفن المذكورة الى مسافة تبعد ستة اميال عن القلعة وفي اليوم التالي نزلت القوات الفارسية تحت قيادة امام قلي خان الى الجزيرة وواصلت سيرها الى المدينة دون اية مقاومة على الساحل واستطاعت ان تواصل سيرها في ميدان المدينة الذى حاول البرتغاليون اغلاقه ولكنهم اضطروا للهرب الى القلعة امام القوات الزاحفة.

كانت الخطة المتفق عليها ان يقوم الفرس والانجليز باحتلال المدينة على ان يقوم الانجليز بقصف السفن البرتغالية في البحر والبر وان يواصل الفرس هجومهم على القلعة في المدينة نفسها وسجل القبطان بليث والقبطان ويدل ومونوكس الخطوط الاولى للخطة الانجليزية وارسل الى مجلس الشركة في سورات وننقل بعض النصوص منه «ان خطتنا تقتضى قصف الاسطول البرتغالي (باذن الله) وقد استطعنا ضرب بعض السفن وحرقها وهرب الباقي».

في نفس الوقت واصلت القوات الفارسية القصف المدفعي للقلعة وقاموا بوضع الالغام تحت جدرانها.

لقد كانت الخطة الفارسية ناجحة ايضا حيث قاموا بتفجير اللغم في 27 مارس والذى ادى الى هدم جزء كبير من جدران برج (سانتياجو) ومع ذلك تمكن البرتغال من صد هجوم الفرس.

عاود الفرس عملية زرع الالغام تحت جدران القلعة مرة اخرى وواصلوا عملهم حتى 6 ابريل.

في ذلك اليوم حاول البرتغال عقد هدنة مع الفرس دون معرفة الانجليز ولكن تمكن مونوكس من معرفة موعد اللقاء ولذا اضطر الفرس الى ادخاله والقادة الانجليز في المفاوضات.

وارسلت الرسل الى جامبرون من قبل البرتغاليين الى خان شيراز وحاولوا رشوته او حتى اخباره كذبا بان الانجليز وافقوا على هدنة ولكنه لم يصدقهم ويعلق مونوكس على ذلك قائلا (لقد تعود الفرس) كذب البرتغاليين حتى اصبحوا يقلدونهم الآن».

ورغم وجود الرسل البرتغاليين في جامبرون استمرت العمليات الانجلو فارسية ضد البرتغاليين في هرمز.

بعد دخول الغزاة الى المدينة ارسلت حامية هرمز النساء والعجزة من سكان المدينة واشياء اخرى في ثلاثة عشر سفينة الى مسقط واستطاعت في نفس الوقت سفينتان برتغاليتان من اختراق حصار الانجليز والدخول الى ميناء هرمز من اجل تموين الحامية وكانتا تحت قيادة دوم مانويل ديسوزا (Don Monvel de Sousa) ابن الدوم فرانسيسكو ديسوزا قائد حامية هرمز الى حين وفاته في يناير 1622.

لقد كان سبب حضور دوم مانويل من اجل نقل والدته وسيدات اخريات من هرمز وولي عهد هرمز وجواهره وثروته التى تقدر بمليون قطعة من الذهب.

حاول دوم مانويل اختراق الحصار في ليلة 29 ابريل وتمكن هو وسفينته من الاختراق ولكن احتجزت السفينة الاخرى في محاولة ثانية في اليوم التالي.

واصل الفرس زرع الالغام في جدران القلعة بمساعدة من الانجليز وجعلوا الدمار في جدرانها اكبر هذه المرة الامر الذى ساعدهم على معاودة الهجوم مرة اخرى على برج (سانتياجو) وفعلا تكرر الهجوم ولكن اضطر الفرس الى التراجع مرة اخرى نتيجة للمقاومة البرتغالية واثاروا فيهم الخوف والقلق حتى ان البعض منهم اضطر الى تصديق الاشاعة القائلة ان الامام على بن ابي طالب سوف يرسل لهم عونا من عنده.

تمسك الفرس بمواقعهم وتقدموا فيها قليلا في اليومين التاليين رغم المقاومة الشديدة من قبل البرتغاليين بقيادة دوم كونجالو دوسلفيرا (Dom Goncalo do Silvera).

ومع هذا الوضع الجديد اصبح في امكان الفرس التصويب على فناء القلعة ومنازلها متى وكيفما ارادوا.

واخبرهم الهاربون من القلعة عن الحالة المأساوية التى وصلت اليها الاوضاع بداخلها وخاصة قلة الماء والمأكل الذى لم يتغير عن الرز والسمك المملح.

ونتيجة لهذه المعلومات بدا لنا ان الحامية لن تصمد اكثر من ذلك امام حماس الفرس في الانتقام لرفاقهم القتلى في معارك جزيرة قشم.

في اول مايو 1622 تقدم قائد حامية هرمز سيماو دى ميلو ونائبة لويز دي برتوا Luiz de Rrito - Simao de Mello بطلب منه الى الانجليز من اجل حمايتهم، ولذا اعلنت هدنة مدتها يومان للمشاورات تمكن بعدها القادة البرتغاليون من تسليم القعلة الى الانجليز في 3 مايو 1622.

لقد كانت نتيجة الحصار لقلعة هرمز عشرين انجليزيا قتلى والف من الفرس وتفشى الامراض والمجاعة في سكان القلعة والذين بقى منهم ثلاثة الاف من النساء والاطفال والجنود والذين نقلوا بدافع من الرحمة الى مسقط بواسطة السفن الانجليزية.

لقد سجل مونوكس الفوضى التى حصلت والنهب والسلب الذى جرى بعد سقوط المدينة والقلعة ولقد تذمر الانجليز من ما قام به الفرس من اخذ عشرة اجزءا مقابل جزء واحد للانجليز بعد سقوط القلعة وذكر مونوكس عمليات الغش التى قام بها الفرس ولكنه يذكر ايضا ان الضباط الانجليز لم يحافظوا على النظام اطلاقا ولقد بيعت البضائع المصادرة من المدينة بواسطة الانجليز بمبلغ 12000 جنيه وحصلوا على عشرة مدافع من مائتا مدفع كانوا بالقلعة اما الباقي فقد ارسل الى اصفهان ولار ويدعى الانجليز بانهم قد تعرضوا للسرقة حيث فقدوا كل ما حصلوا عليه من اشياء اخرى من القلعة.

ومع ذلك فقد نهب الانجليز ما فيه الكفاية فقد قام وودكوك ضابط السفينة الحوت بسرقة مجوهرات واطباق(1) وأشياء ثمينة تقدر بمليون (ملكي – عملة في هرمز) له ولاصحابه ولقد اكد مونوكس هذه الواقعة وافاد بان وودكوك حصل على ذلك من نائب قائد الحامية البرتغالية لويز دى برتو ومع ان هذه الحوادث ازيلت من روايات اخرى (وذلك لكي لا تشوه سمعة الانجليز) فان مونوكس يؤكد مرة اخرى بانه

(1) الاطباق من الفضة وكانت تحمل شعار العائلات البرتغالية.

وبناء على عملية السرقة هذه والتى قام بها وودكوك قام الفرس بنهب خزنة وزير المملكة (وزير ملك هرمز) والتى تقدر بستة مائة الف دكتا (عملة برتغالية) ونستطيع ان نؤكد بان كل شخص مع القوات الغازية قد استفاد من هذه المعركة.

ويعلق مونوكس على تصرفات الجيش الفارسي قائلا «اننى لا استطيع ان اتصور ان يقوم الشاه عباس (احد عجائب عصرنا) بارسال جيش غير منظم ويفتقر الى الخبرة والمال والمعدات اضافة الى نقص السلاح والذخائر وحتى الجيش الانجليزي مع اضطراره للدعم المستمر للفرس ومدهم بالبارود من اجل الالغام فان نفس الجيش مارس الخمول الذى كان ممكن ان يؤدى الى الهزيمة.

في 23 مارس 1622 وصلت انباء سقوط قشم الى جوا وقام حاكم الهند فيرانو دي البوكيرك Farano de Albuquerque باعداد بعثات بحرية تشكلت من سبعة عشر سفينة تحمل 447 رجلا تحت قيادة قسطنطينو دي سا نورونها constan tiuo de Sa Noronha وطلب حاكم الهند من الوجهاء بالتبرع وكذلك من رجال الدين وحصل على مائة الف (كروزادوس) من دار الشفقة في جوا.

لم يتعجل دي سا نورونها في الرحيل وحتى انه عندما واجه العاصفة توجه الى مسقط لاستقبال اللاجئين وبينما هو في مسقط وصل اليها روى فيريرا الذى استطاع الهرب من الانجليز في سورات وكان يبتغى العودة الى هرمز لاستعادة سمعته.

في 7 ابريل يتوجه اسطول البرتغال من مسقط الى هرمز ويلاقي في الطريق سفن اللاجئين فيها وكاد ان يصطدم بهم ولكن بعد اكتشاف الحقيقة يعود الاسطول الى مسقط مرة اخرى.

لم يكن غزو هرمز بواسطة شركة الهند الشرقية عملا مربحا لها في البداية حيث اضطرت الشركة الى اعطاء الملك جيمس عشرين الف جنيه رشوة الى جانب رشوة دوق بكنجهام وذلك للحصول على العفو والغاء تهمة القرصنة الموجهة اليها لما قامت به من اعمال نهب وسلب تجاه دولة اوروبية صديقة (البرتغال) في وقت كان السلم مسيطرا على العلاقات بين انجلترا والبرتغال.

على كل حال نحن لا نستطيع أن نؤيد القول الذى يدعى خسارة الشركة فانه من المعلوم ان سقوط هرمز وسيطرة الفرس كان يعنى اسقاط الضرائب على البضائع الانجليزية في فارس وبزوال اسطول روى فيريرا زال الخطر الذى كان يهدد المراكز التجارية الانجليزية في الخليج والسواحل الفارسية. وانتهى ميناء هرمز وبندر عباس واصبح لا منافس لميناء جسك والذى كان تحت سيطرة الانجليز.

أما عن الخسارة الانجليزية المؤقتة فإنها لا تعادلها السيادة المطلقة التى وصل اليها الانجليز في الخليج بتوجه ادوارد مونوكس. فمنذ ذلك التاريخ اصبحت بريطانيا سيدة البحار ودون منازع.

كان لسقوط هرمز صدى عظيم في البرتغال تتطلب التحقيق مع كبار القادة وحتى حاكم الهند فيرناو البوكيرك لم يسلم من ذلك. وانه من

دواعي العجب ان يقر الشهود البرتغاليون بان القلعة في هرمز سلمت للغزاة وهى في كامل هيكلها العمراني (وانه غير صحيح) وقد اكد الفرس والانجليز بان جزءا كبيرا من جدران القلعة الخارجي تم هدمه بواسطة الفرس وكذلك جزء من برج سان بدرو وقد كادت الغامهم ان تدمر خزانات الماء ايضا. ويعزز الانجليز قولهم «بان الحامية ما كانت تستطيع الصمود اكثر من يوم او يومين حتى لو توافر الماء والزاد».

وجه البرتغاليون من حامية القلعة الاتهام الى قائدها سيماو دوميلو واعتبروا عدم استعمال الخندق المحيط للقلعة اهمال منه حيث لو كان قام بالامر بتنظيفة وملئه بالماء لما سقطت القلعة في يد الاعداء. وكان الامر سوف يكون اصعب على الفرس ويستحيل زرع الغامهم تحت جدرانها. رغم ذلك نحن نعتقد ان عدم استعمال الخندق مع المجاعة المتفشية وقلة الماء وسوء الحالة الصحية لثلاثة الاف من الرجال المسنين والنساء والاطفال من مختلف الجنسيات لن يحقق المطلوب وكانت النهاية قد كتبت ومع هذه الظروف الصعبة هناك ابطال لا بد ان نذكرهم ومنهم دوم جونكالو ديسلفيرا والذى كان مستميتا في الدفاع عن القلعة ومصرا على قتل النساء والاطفال انقاذ لهم من الاسر والتعذيب والقتل على ايدي الفرس.

وامام هذه الشجاعة كان هناك خوف الحامية من فتك الفرس لذا قرروا وضع مصيرهم في يد الانجليز والذين ربما يعاملونهم بروح مسيحية سمحة.

ورغم ان هذه المعركة والتي دارت على البر وادت الى سقوط هرمز المدينة والقلعة رغم كل ذلك ان المعركة الحقيقية كانت في مياه الخليج وكانت نهايتها قد كتبت عندما اشتعلت النار في السفينة البرتغالية ساو بدرو (Sao Prdro) بعد اصابتها بالقذائف البريطانية ذلك هو يوم القديس جورج (23 ابريل) اليوم الذى انزل فيه العلم من قلعة البوكيرك وارتفع مكانه صليب القديس جورج الاحمر على القلعة ذاتها ومع المرارة التى عانى منها البرتغاليون وهم يشاهدون سقوط قلعتهم عرف البعض منهم ان هناك البعض من الناس الذين ربما يجهلون اسلوب الاحتلال ولكن يعرفون جيدا كيف يواجهون الموت.

أن قصة سقوط هرمز تعتبر الجزء المهم من مذكرات روى فيريرا والتى بسقوطها حُلت عقدة سلسلة المستعمرات البرتغالية الممتدة من شرق أفريقيا الى اسيا والمتحكمة في اغنى المسارات والمواد التجارية.

وبطبيعة الحال حاول البرتغاليون استرداد هرمز وجاء روى فيريرا في 1623 و 1634 ولكن باءت المحاولات بالفشل ولم يقتله اليأس فعاد محاصرا بندر عباس (جامبرون) في 1625 ولكن كان تصدى الاسطول الانجلو – هولندى له سبب رفع الحصار واستمر في محاولاته في اعاقة السفن التجارية حتى انه تمكن في النهاية من التدمير الكامل للمكانة التجارية لبندر عباس حيث اصبح عديم الاهمية ولم يعد لاسترداده قيمة للبرتغاليين.

في ايام عيد الميلاد عام 1622 وصلت انباء سقوط هرمز الى مدريد واثارت الجو العام في البلاط الاسباني مما ادى الى تدخل السفير الانجليزي وتهدئة الامور وبوعد منه بمناقشة الامر عند وصول الامير شارلز ودوق بكنجهام، ولكن ومع بداية الحرب الانجلو اسبانية اصبحت المناقشات الموعودة عديمة الاهمية.

بعدها اضطر ملك الاسبان الى الكتابة الى حاكم الهند دوم فرنسيسكو ديجاما (Dom francisco da gama) والكونت الرابع لفيد يجورا (Vidigueira)يحثهم باستعمال القوة وكل السبل المتوفرة لاسترجاع الجزيرة او حتى استعمال الرشوة سبيل للوصول الى الغاية.

كان النصر الذى حصل عليه الانجليز في الخليج سببا في جعلهم عرضة للانتقام البرتغالي لذا يكتب ويدل ومونوكس قائلين «اننا متأكدون انه في العام القادم وربما قبل ذلك سنضطر لمواجهة كل قوى الهند واذا ما استطعنا الثبات وهزيمتهم مرة اخرى فاننا سوف نصبح سادة البحار وقادتها».

في العامين 1622 - 1623 ارسلت لشبونة السفن الى الخليج ولكن لم تصل اغلبها اليه لسبب او لآخر، ولكن وفي سبتمبر 1624 أرسل اسطول عظيم من لشبونة الى الهند وقام نائب الملك بأخذ التدابير والاستعدادات لارساله الى الخليج لدعم سفن روى فيريرا ودوم جونكالودي سيلفيرا التى تهدد سواحل الخليج العربية والفارسية بالسيف والنار.

في بداية عام 1625 توجهت سفن الاسطول البرتغالية من جوا وباسيين (Bassein) الى هرمز تحت قيادة نونو الفارين بوتيلو (Nuno Alvorez Botelho) والذى يختلف عن الكثير من القادة البرتغاليين حيث قام بتجنيد الاوروبيين على سفنه دون غيرهم واعطى كل اهتمامه لتدريب البحارة وجنود المدفعية.

وجاءت نتيجة ذلك واضحة عندما واجهت السفن البرتغالية سفن الاسطول الانجلو هولندي في الخليج ودون هزيمة البرتغال هذه المرة ورغم ادعاء الطرفين بالنصر في ثلاثة مواجهات متتابعة.

توجه الاسطول البرتغالي الى مسقط ومنها الى سورات مهددا السفن الانجليزية هناك والتى أبت المواجهة.

وقيل انذاك «ان البرتغال تعلمت من الدروس السابقة» ولكن ورغم التهديدات من هذا الاسطول الجديد وتدمير سفينة الاسد (Lion) التى قام فيريرا بتدميرها في نوفمبر 1625 قرب جامبرون (بندر عباس) فانها لم تترك اثرا دائما على الاسطول الانجلو – هولندي في المنطقة.

وجاءت المواجهة المطلوبة ولكن مع سفن قادمة من انجلترا الاسد وبالسجراف ودولفين (Lion, Palsrave, dolphin) وكانت المواجهة شديدة تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة ومع ذلك استطاعت بالسجراف ودولفين من الهرب الى جزر القمر وبقيت سفينة الاسد في محاذاة الاسطول البرتغالي لبطء مسيرتها فصادرها البرتغاليون وقتلوا قائدها ريتشارد سوانلى (Richard swanly) وعدد كبير من رجاله وضباط سفينته.

رغم ذلك تمكن البحارة الانجليز من استرجاع سفينتهم وفجروا قمرة القيادة وقتلوا العدد الكبير من البرتغاليين وبعدها ابحروا في اتجاه جامبرون.

ما ان وصلت السفينة الاسد الى الخليج تصدى لها اسطول روى فيريدا قرب جامبرون فقرر بحارتها التوجه الى هرمز لكي تحميها مدافع قلعتها، ولكن قام اسطول فيريرا السريع والمكون من سفن صغيرة بمحاصرتها وحرقها.

وقطع رؤوس بحارتها وارسلها في اكياس من حرير الى ممثل شركة الهند الشرقية في جامبرون مع رسالة يقول فيها (هذا انتقام للهرمزيين الذين قام الانجليز بتسليمهم الى الفرس اثناء حصار جزيرة قشم).

بعد هذه الحادثة تمكن فيريرا من عقد صلح مع الفرس واقامة مخازن وقلعة في كنج والحصول على امتيازات مماثلة لامتيازات الانجليز في بندر عباس (جامبرون).

لقد بقى هذا المركز الى القرن الثامن عشر وكان مركزا تجاريا متميزا.

في 1649 – 1650 سقطت مسقط من ايدي البرتغاليين وابتدأت معها عوامل الجزر تؤثر على الوجود البرتغالي في الخليج، بما في ذلك المركز التجاري الذى افتتح في 1624 بعد ان قام البرتغاليين بمساعدة الباشا التركى ضد حصار الفرس للبصرة.

في السنوات الواقعة بين 1625 – 1630 القى روى فيريرا الرعب في سواحل الخليج وهددها جميعا بالنار وبالسيف وهاجم البحرين والقطيف.

في عام 1630 عـاد روى فيريرا الى جوا (بعـد حملة تأديبيـة شارك فيها بأمر من نائب الملك كوندى دى لانهارس (Conde de Linares) وضد قلعـة للهولنديين في باليـاكا (Paliacat) عاد الـى مسقـط وقام بتحصين قلاعها.

في عام 1632 اصـيب روى فيريرا بالحمى وتوفى في مـسقط ودفن في كنيسة القديس اغسطين وفي قبر عادي ومتواضع دون رفيق ودون يد صديقه تخط على قبره (هذا قبر نوع آخر من الرجال).

اهداء الكاتب

(Konga Broo Satra)

الى السيد لورينسو سكييت، نيد كونجز برو ساندا

(Lourenco-skyite)

وكيل ملكة السويد في بلاط ملك البرتغال

لقد قررت ان اهديك مذكرات روى فيريرا دى اندرادى والتى تحتوى على اعماله البطولية وما قام به رفاقه من انجازات مماثلة.

ان الموضوع ربما يكون مع غرابته لائقا لسيد مثلك انتقل في اوروبا كلها.

واكثر من ذلك كون الراوي برتغالي يتناسب في نظري مع المكانة التى نلتها من صاحبة الجلالة الملكة كريستينا والتى ارسلتك لنا في مقدمة ممثلي التاج السويدي لدى البلاط البرتغالي.

هذا الى جانب تأييدك لملكنا وسيدنا دوم اياو الرابع (dom Loao IV) كل هذه الاشياء جعلتني اقرر ان يكون الاهداء اليك طامعا في ان ينال رضاك واعجابك وان تستلهم من الاعمال البطولية فيه والتى تدل على عظمة البرتغاليين السابقين والذين نالوا حريتهم نتيجة اعمال مماثلة.

حماك الله ورعاك لشبونة 27 يناير 1647

(باولو كراسيبيك Paulo Craesbeik*)*



الأعمال العظمى

للقائد الشهير

روى فيريرا دى اندرادا

اثناء فترة وجوده في الشرق

ارتحال روي فيريرا من لشبونه والأحداث التى حدثت له حتى وصوله الى موزمبيق. لقد اصاب الملكية البرتغالية الوهن والضجر ولأسباب مجهولة ادت الى ضعف الملوك المحليين – ولقد كان تتويج الملك فيلب الثاني (ملك قشتاله) قسرا ودون حق الى جانب دخول الانجليز والهولنديين باساطليهم القوية الى مناطق في الشرق كانت تابعة الى السلطة العلية سلطة لوستسانيا بدرعها الخماسي(1) (Lusitarian quins) على مدى مائة عام.

لقد كان دخول الانجليز والهولنديين السبب الرئيسي في توقف تصدير حرير فارس الى البرتغال والذى ادى الى ان يصدر المجلس التجارى والتابع للتاج البرتغالي امره باعداد اسطول تاديبي يفتح المضائق العربية (المندب وهرمز) امام تجارة البرتغال مرة اخرى ويشل نشاط الدخلاء الأجانب ويقضى على دعاة القرآن.

اختير القائدالعام لهذا الاسطول القبطان روى فيريرا دى اندرادي وكانت السفن التى شكل منها هذا الاسطول كالتالي:

سفينة القيادة ساوبدرو (Sao Pedro) وعليها اربعة وخمسون مدفعا وستمائة من الرجال المسلحين.

سفينة نائب القائد العام ساومارتينو (Sao Martinho).

وعليها دوم ايو ايدا الملقب بـ او شريطة (dom Ioao de almcy-

(1) الدرع الخماسي: يتكون من خمسة دروع على شكل صليب وكل درع يحمل خمس اشارات ترمز الى جروح المسيح الخمسة ولو عدت الجروح في الدرع المتوسط مرتين فإننا نحصل على الرقم 35 وهو المبلغ الذى بيع به المسيح (35 قطعة من الفضة)

السبل البحرية لأساطيل البرتغال في الخليج 1600م

والسفـينة نوسـاسـينورا دوبابلو (Nossa Sen Hora de Pa-da) وقـائدها فـرنسـيسكو دى مـيلو (Francisco de Mello) والسفينة نوسا سينورا داكونسبسا و (Nossa Senhora de Con-cepca) وقائدها فرنسيسكو دي ميسيكتوا (Fran Cislo de Mes-quita) وقائدها بلثيزار دى شافيز (Balthezar de Chaves).

وفي اول ابريل 1619 غـادر الاسطول لشبـونة مـتوجـها الى هرمـز وعليه الفين من الرجال المسلحين.

بعد ثمانية ايام من الابحار واجهت الاسطول عاصفة ادت الى انفصال سفـينة نائب القائد والسفينة بـابلو عن بقية الأسطول ومعـها الاسطول المتوجه الى البرازيل. واصلت سفينة القيادة وسانتو انتونيو وكونسبسا الابحار في اتجاه الشرق.

في صبـاح احد الايام شاهد جنـدي الرصد اشرعـة كثيـرة العدد من الافق ولا يمكن احصاؤها.

في هذه اللحظة انزلت الأشـرعة ورفع العلم المربع اسـتعـدادا للحرب وكذلك اعطيت الاوامـر للسفن الصـغـيرة لتنفيـذها وفي الساعة الثـانية ظهرا اقـتربت سفـينة ذات عشرة مـدافع من سفينة القـيادة ترفع العلم الأحمـر المربع واطلقت طلقـة تحذيرية في اتجـاه الاسـطول البرتغـالي، فردت عليـها سـفينة القـيادة بطلقـة ذات زنة 24 رطلا اختـرقت جسم السفـينة وقتلت اربعـة من بحارتهـا، فتـذمر بحارتهـا واعلنوا انهم من قشتـاله وفي طريقهم الى جزر الهند الغـربية فاخبـرهـم روى فيريرا ان سوء تصرفهم جلب عليهم الدمار .



هجوم مشترك لسفن هولندا وبريطانيا ضد سفن البرتغال 1603م في بحار الهند الشرقية

توجهت السفينة المصابة الى سفينة القيادة في الاسطول القشتالي وانزلت اعلام الحرب واطلقت المدافع تحية واحترام لاسطول البرتغال ورد الاسطول البرتغالي بالمثل. وتوجه كل اسطول الى وجهته الاصلية.

تقابلت سفن الاسطول البرتغالي مرة اخرى قبل موزمبيق وكان الاتفاق ان تنتظر السفن الصغيرة سفينة القيادة هناك حتى السادس عشر من سبتمبر وبعدها تتوجه الى الميناء الشتوى في ممباسا.

في الطريق الى موزمبيق قابل روى فيريرا السفينة ن . سنورا دا بوانوفا (N. sehora de Boa Nova) وطلب من قبطانها دوم فرنسيسك ديليما بان يمده بالرجال وذلك لتفشى المرض في بحارة روى فيريرا فاعطاه دوم فرنسيسكو (dom farcisco) ستون بحارا وارسل فيريرا مع قبطان هذه السفينة رسالة الى نائب الملك في الهند كوندى دو ريدوندو (Coude do Redondo) يخبره عن تكليفه بواسطة الملك في بناء قلعة في جزيرة قشم وان يقوم (اي فيريرا) بمنع الانجليز من المرور في مضيق هرمز والاتجار في حرير فارس والذى كان سلعة تحتكرها البرتغال. ويطلب من نائب الملك امداده بالسفن والجنود من اجل تحقيق ذلك.

وقرب رأس الرجاء الصالح توجهت سفن فيريرا في اتجاه هرمز بينما سفينة ديليما في اتجاه الهند. وعلى بعد مسافة ليست كبيرة اعترضت سفينة هولندية الاسطول البرتغالي وباشرت في اطلاق مدافعها على سفينة القيادة.

استمرت المعركة ساعات طويلة استخدم الهولنديون فيها أربعة واربعون مدفعا كبيرا دون احراز اي نصر.

تكرر القصف المدفعي مرة اخرى وفتحت سفن البرتغال كل مدافعها على السفينة الهولندية فاصابت شراعها الامامي والمتوسط وابقتها تحت المراقبة في الليل من اجل مصادرتها في النهار ولكن تمكنت السفينة الهولندية من الهرب مع بزوغ النهار.

واصل الاسطول البرتغالي الابحار حتى وصل الى جزر كونجكوزا (congoza) حيث اعترضته عواصف شديدة اضطر فيريرا الى انزال سفنه الصغيرة تحت قيادة عريف الارماده لويس مارتنزفيو (Luis Martinis fio) وامره بان يتوجه الى موزمبيق ويطلب من السفن التى سبقته بالانتظار الى حين وصوله ومع اعتدال الجو وصلت السفن كلها الى موزمبيق في 17 سبتمبر.

معركة ميناء جسك وتمكن الانجليز
من نقل الحرير منه ومغادرته دون اصابة

عندما توقفت الارماده البرتغالية فى ميناء جسك استطاعت بذلك منع السفن الانجليزية من نقل الحرير من مستودعات الجزيرة، لذا قررت القيادة الانجليزية اضرام النار فى السفينة البرتغالية المصادرة وتوجيهها تجاه الارماده مما كاد ان يؤدى الى احتراق سفينة القيادة لولا تصرف روى فيريرا واتيانه بمعجزة.

لقد احرقت السفينة المذكورة ومعها احترق اربعون حصانا وكميات كبيرة من التمور.

مع حلول ظلام يوم آخر انتقل القائد من سفينة الى اخرى يناقش امور بحارتها وتم احصاء قتلى المعركة الاولى (خمسة وعشرون قتيلا) وتسعة واربعون جريحا وكان ضمن القتلى نائب القائد ايوابورهلو والكابتن بيدرو دى مسيكيتا وكان الاثنان من احسن المحاربين فى بحرية صاحب الجلالة وتم حفظ جثمان الاول فى صندوق من الملح على أن ينقل بعد ذلك الى هرمز ليتم دفنه فى احتفال ومراسم تليق بقائد مثله.

تم تعيين فيرانو روبيلو نائبا للقائد قائد بحرى سابق فى الهند وقائد شجاع وتم اختياره بالاجماع فى سفينة القائد مانويل روبيرو.

ومع استعدادات المعركة القادمة عاد القائد الى سفينته وبعد معركة يوم سابق وطويل «من الخامسة صباحا حتى السابعة مساء» ابتدأت معركة اليوم التالى على صوت مدفع سفينة القيادة امرا السفن برفع

اشرعتها والتوجه نحو الاسطول الانجليزي كان القصد من المعركة هذا اليوم توجيه الاصابة لسفينة القيادة الانجليزية ولكنها كانت تتحاشى المواجهة وتتجه الى عرض البحر منتهزة الفرصة السانحة لكى تدخل الميناء.

ومع المناورات البحرية التحق احد الجنود البرتغاليين السابقين والذين تم احتجازهم مع سفينة مسقط بسفينة القيادة بعد هربه من سفن الانجليز.

نقل هذا السجين الفار اخبار الاسطول الانجليزي قائلا لقد قتل البحار الرئيسي فى سفينة القيادة وسبعون اخرون واصيب مائة وعشرون من البحارة فى السفن الاخرى.

«اما الانجليز فانهم يعترفون بإصابة قائدهم فى كتفه الايسر اصابة قاتلة توفى بعدها ودفن فى جزيرة جسك اما القتلى من البحارة فكان عددهم اثنان وعدد الاصابات ثلاثة فقط».

واصل البحار الهارب حديثه موضحا نية الانجليز فى نقل الحرير بواسطة السفن الصغيرة ليلا واذا فشلوا فى ذلك فانها سوف تكون معركة رهيبة القصد منها تحطيم الارماده البرتغالية.

بعد اثني عشر يوما من المناورات البحرية لم يجرؤ الانجليز فيها على المواجهة مع الارمادة ومع تعب البحارة من رفع المراسى والاشرعة وانزال المراسي وطوى الاشرعة قرر القائد فيريرا انزال المراسي وحماية الميناء والمراقبة الحذره لتحركات الاسطول الانجليزي.

ومع معارضة من القادة الاخرين فى الاسطول البرتغالي قام روي

فيـريرا بربط السـفن البرتغـالية جميعـها بواسطة سـلاسل تأتى فى نهايتـها سفينة نـائب القائد فى الطرف الاخر نقل الانجليـز كل الاسلحة الحربية الى السفن الكبيرة استـعدادا للهجوم المرتقب واملأ فى الدخول الى الميناء للحصول على الحرير المطلوب نقله من المخازن.

فى يوم الخمـيس 7 يناير 1621 ومع هدوء كامل فى البـحر وسكون الهواء، انقضت السفن الانجليزية على الارماده البرتغالية.

ابتدأت المعـركة بالمدافع مرة اخرى بين سـفينتى القيادة ومع انـشغال سـفينة القـيـادة البرتغـاليـة بالمعركـة اسـتطاعت سفـينة نائب القـائد الانجليزي قطع حـبال المراسى بالقـذائف المدفعيـة لسفينـة نائب القائد البرتغالي مما ادى الى حركتها العشـوائية واتجاهها فى مواجهة السفن البرتغالية.

نتيـجة لهذا التطور اصـبحت المدفـعية البـرتغالية عـاجزة عن اطلاق قذائفـها بينمـا كانت السفن الانجـليزية فى موقف تسـتطيع اطلاق كل مدافعـها تجاه الارماده والتـى اصابتها خسـائر جمة وخاصـة لانعدام الريح وعدم القدرة على استخدام الاشرعة لتغير الموقف المذكور سابقا.

توقـفت المعـركـة مع حلول الظلام وكـانت الاصـابـات فى السـفن البرتـغالية جـسيـمة وقـد تم اصلاح اغلب الثـغرات الناتجة عـن قذائف المدفعية الانجليـزية ولكن كانت الخسائر البشرية كبيـرة «مائة وستون قتيلا ومائتا جريح».

اصبح الجو عاصف فى اليوم التالى فلم تحدث اية مواجهات ولكن بعد هدوء العاصفـة وجدنا ان الاسطول الانجليزي قد نقل الحـرير من ميناء جسك وغادره عائدا ومنتصرا على اسطول البرتغال المحطم.

وصول روي فيريرا الى هرمز
ومباشرة بناء قلعة قشم

بعد وضع الحراسة على ميناء جسك غادر فيريرا الجزيرة متوجها الى هرمز مبحرا فى محاذاة الساحل الفارسى بعد عدة ايام وصلت سفن الارمادة تتقدمها السفينة ساوماريتنو رافعة الاعلام السوداء وتبعتها السفن الاخرى وبنفس الطريقة ودخلت منطقة قلعة هرمز دون اطلاق مدافع التحية احتراما لوفاة نائب القائد والذى تم دفنه فى كنيسة الكرمل بعد مراسم عظيمة تناسب قائد مثله.

تم نقل بعض الحرس الى منازل الاهالى ورعايتهم اما الاخرون منهم فتم ادخالهم الى المستشفى والذى كان انظف واحسن مستشفى من ناحية المعدات والادارة عن سائر المستشفيات فى الهند.

بعد الوصول الى هرمز ابتدأت اعمال الصيانة لسفن الارمادة والتى نفذت بسرعة فائقة لتوفر المواد اللازمة فى مخازن قلعة هرمز الى جانب ما ارسل من الهند بواسطة الحاكم فيرانو دى البوكيرك.

عقد اجتماع فى قلعة هرمز دعي اليه حاكم الجزيرة وذلك لمناقشة اوامر ملك البرتغال والتى يطلب فيها بناء قلعة فى جزيرة قشم.

كانت دعوة ملك هرمز الى الاجتماع تطبيقا لقرار الملك السابق الدوم مانويل والذى اعفى ملوك هرمز من الولاء للبلاط الفارسى لتحالفهم معه.

تحرك موكب ملك هرمز الى القلعة يتقدمه مرافق هرمزى يمتطى جملا ويضرب على طبلين كبيرين ويتبعه آخر ضاربا على اربعة طبول أصغر

وبعده اثنان من المرافقين يرفع كل منهما علم اخضر بحاشية ذهبية وفى وسطه هلال فضى وثم فارسان يمتطيان فرسين مطهمين بطريقة فيها بذخ فارسى يحمل كل منهما عصاه (دليل الطاعة والعدل) وبعدهما اثنان من ضاربى السنجات (الطوس) واربعة من نافخى (الصرناى) بعد هذه المجموعة الادارية والموسيقية يأتى خدم الملك فى ملابس غالية يتبعهم الملك بعباءته ذات الالوان القرمزية والخضراء والذهبية بأكمامها القصيرة ويلبس قميصا مطرزا على الطريقة الفليبينية وسراويل من المخمل الوردى اللون واحذية وجوارب مثل البرتغاليين ونطاق من القماش الفضى يتوسطه خنجر مذهب ومرصع بالجواهر، وعمامة قرمزية من الحرير الفارسي تتخللها خطوط مذهبة.

كان الملك ممتطيا فرسا عربية رمادية اللون ذات سرج مذهب ولجام من نفس الطراز وكانت رأس الفرس مزينة بأشرطة حريرية ذات عقد جميلة ويتوسطها ريش قرمزي تم تثبيته فى منتصف شريط الحواجب.

كان الامير مرافقا للملك وعلى يساره ووزيره على يمينه يتبعهم المرافقون والحراس ورجال القصر.

عند وصول الموكب الى بوابة القلعة ضربت الطبول فخرج الجنود واصطفوا على جانب الجسر فى طابور يمثل حرس الشرف.

ترجل الملك عند بوابة القلعة لكي لا يطلب من قائدها الامساك بركابه (والذى كان مطلوبا منه القيام به) ومشى على الجسر عندها خرج حامل الراية لمقابلة الملك فى منتصف الجسر وانزل رايته خمس مرات (واعطاه الملك مائة باتاكاس ـ عمله برتغالية ـ كعادته كلما حضر الى القلعة) بقى حامل الراية وطابور الاستقبال على الجسر حتى مغادرة الملك القلعة.

عندما دخل الملك القلعــة وجد قائدها فى انتظاره ومعــه حامل المفاتيح الفضية والخاصة ببوابة القلعــة والذى قام بتقديمها الى الملك جاثيا على ركبته، استلم الملك المفاتيح واعطاهــا لقائد القلعة والذى قدمها بدوره الى المساعد.

سار الملك الى داخل القلعة مع قائدها كتفا لكتف ودخل مع قائد القلعة الى غرفة اجتــماعات المجلس وبعد جلوس الحاضريــن ابتدأ روي فيريرا بالحديث عن رغبة ملك البرتغال فى بناء قلعة فى جزيرة قشم قائلا «لقد امرنى الملك قــبل مغــادرة البرتغال وبهــذه الرسالة التى وصلت الشــهر الماضى بأن اقوم بحماية ميناء جسك وأمنع الانجليز من نقل الحرير منه على ان اتوجه بعد ذلك لبناء قلعة قــشم والتى لا بد من اعطائها الاولولية ووضعها فــى مقدمة امور هذا المضيق لما لهــا من منافع لحكومة صاحب الجلالة ومملكة هرمز» وبعد تقبيل الوثيقة الحاملة لأوامر الملك والرسالة المذكورة قــام فيريرا بتــقديمها الى ملك هرمــز والذى بدوره اعطاها الى قائد القلعة.

بعد قراءة الوثيقة والرسالة ابتدأ قــائد القلعة بقوله «لقد خدمت جلالة الملك ولسنوات طوال فى الهند حتى اننى اصبــحت وكأننى مواطن هندى وكذلك عملت قائدا لهذه القلعــة مدة طويلة من الزمان تجعلنى فى موقف ادرك فيه حقيقة مــا اقول ولذا ورغم ان هذه الجزيرة تفتقر الى الماء وان بناء قلعة قشم سوف يوفــر لنا معين لا ينضب منه الا اننى اود تحذيركم بان بناء قلعة قــشم سوف يكتب نهاية السلام مع الفــرس وسوف نخلق لانفســنا اعداء جددا فــى ظروف اصبحــت فيهــا قوة وجــودنا فى الهند متردية تماما ولذا اطلــب منكم ان نقوم بأبلاغ الملك بخطورة الاقدام على مثل هذا العمل.

عارض نائب الملك فيرانو البوكيرك القرار الملكي لنفس الاسباب التى ذكرها قائد قلعة هرمز متسائلا ما اذا كانت قلعة قشم المزعومة تستطيع الصمود والاعتماد على النفس وكرر قائلا «هل تستطيع قلعة هرمز اخذ هذا القرار الخطير. وارجو منكم ان لا يشك احد منكم بأنى اتخذت هذا القرار بدافع شخصى ولمصلحة خاصة لذا اطلب منكم ان تشهدوا بانى اقدم نفسى وولدى وكل ما أملك من أجل خدمة صاحب الجلالة الملك».

بعد ذلك تحدث ملك هرمز قائلا: «ان المحافظة على الامن والسلام هو روح وحياة اية امبراطورية ولذا انا اؤيد ما قاله قائد القلعة فى هذا الخصوص ولكن اريدكم ان تعرفوا ان الشواطىء التى يحتلها الفرس هى شواطىء تابعة لى وكذلك جزيرة قشم المذكورة والتى باعها ملك فارس الى ملك البرتغال ولذا فان القلعة المذكورة يمكن تشييدها دون خوف حيث ان هذه الجزيرة رغم بيعها تابعة لي ولو عارض الفرس فان لدى المال والرجال مما يجعل الدفاع عنها امرا ممكنا ويعطينا الاستقلال التام عن حاكم جامبرون «بندر عباس» وتدخلاته فى امور قلعة هرمز ولذا اقدم املاكى اموالي من أجل هذا المشروع.

وافق الجميع على ما قاله الملك.

صدرت الاوامر لقارعي الطبول ورفعت الاعلام ووزعت رواتب البحارة والرجال وجهزت ثلاثون سفينة لهذا المشروع ومعها السفينة ساولو رينسو والسفينة كونسيبساو واجتمع (2000) الفان من الجنود والبحارة البرتغاليين لمرافقة الاسطول والتحق بهم الف من الهرمزيين وغادر الجميع فى 7 مايو جزيرة هرمز متوجهين الى قشم.

وصول الارمادة الى قشم وبناء قلعتها

تقع جزيرة قشم مقابل الساحل الفارسى وعلى بعد نصف فرسخ منه وثلاثة فراسخ من قلعة هرمز وهى جزيرة خصبة تمتاز بوفرة الضرع والزرع والماء العذب وتمتد شواطئها الى مسافة 18 ثمانية عشر فرسخا ويسكنها الهرمزيون والفلاحون الفرس.

عند وصول الارمادة الى قشم انزلت مراسيها مقابل النقطة المزمع بناء القلعة فيها وعلى مسافة بعيدة نسبيا لوجود ثلاثة الاف مسلح فارسى فى الخنادق المقابلة للساحل.

فى 8 مايو وبعد اعلان البحارة والجنود ولاءهم واعترافهم للقساوسة امروا بالانتقال الى السفن الكبيرة (الغلايين) والتى قامت السفينة الثالثة اخذها مقطورة الى عمق ستة ابواع من الساحل وعلى مسافة مناسبة للقصف المدفعى لخنادق الفرس.

وتحت وابل من القصف المدفعى لسلاح الخيالة والفرسان الفارسيين على الشاطىء نزل الفان وخمسمائة من البرتغاليين والهرمزيين الى الشاطىء وبعد مواجهة بسيطة مع الفرس انسحب الفرسان الفرس الى الداخل.

شكل مركز قيادة منفصل تحت ادارة دوم ايوادا سيليفيرا والذى رقى الى رتبه عقيد اما القائد فقد استلم قيادة المقدمة والدوم مانويل دى ازفيدو قيادة المؤخرة ونزل الجميع الى الشاطىء وفى اتجاه الخنادق والتى عند الوصول اليها توقف الطابور العسكري قربها اشارة للسفن للتقدم الى الشاطىء.

وبعد ان جهز الموقع وحددت المعالم والحدود الخارجية للقلعة ارسل القائد الى سفن الارمادة فى طلب الصوارى العالية وقطع الاخشاب وقام بصنع هيكل منها على ارتفاع اربعة وعشرين قدما وبعرض ثمانية اشبار وبهذه المقاييس تم تشييد حصنين وضع فوق كل منهما مدفع من عيار 24 رطل بعدها تم بناء الجدران وبنفس الارتفاع وعرض خمسة اشبار وكانت المواد المستخدمة فى البناء هى من صخور وطين الجزيرة للجدران وواجهات صخرية تتخلها مادة الجص وتخترقها فتحات لولبية وفتحات للبنادق.

فى نفس الوقت تم حفر الخندق بعمق اربعة وعشرون قدما وبعرض عشرين خطوة (ويقال انه قام بهدم المدينة والكنيسة لاستخدام احجارها فى البناء وقتل كل معارض له وجازي كل مساعد).

وبعد بناء الجدران تم بناء المنازل والغرف والتى قبل الانتهاء منها وصلت انباء تقدم القائد الفارسى امام قلي خان ومعه سته الاف من الجنود الفرس لمحاصرة القلعة.

مع وصول هذه الانباء قام روي فيريرا بتوزيع جيشه وقادته على الحصون التابعة للقلعة فبقي هو فى الحصن المسمي مادري دى ديوس Madre de Deos والذى كان اقرب للبحر واعطى دييجو بيريرا الحصن التالى تجاه اليابسة والمسمى سبريتو سانكتو Spirito Sanctos وبعده الحصن المسمى سانتياجو Santiago الى سباستيو بيريرا دى ماسيدو والحصن المسمى سانكتو انطونيو Sancto Antonio وفى اقصى القلعة من جهة البحر الى بليثزار

دى شافيز وعهد بمخزن البارود الى مانويل كاباكمو والفناء الداخلى الى فيرناو دى باروس وعهد الى منطقة الدعامات الجدارية بين الحصون الى ثلاثة من قادته الآخرين.

بعدها ارسل العيون لاستطلاع معسكر الاعداء وعادوا بمعلومات تؤكد وجود العدو على بعد ثلاث ساعات من القلعة.

بعد وصول طلائع القوات الفارسية استقرت على التلال المقابلة للقلعة، ولكن ما ان شاهد القائد الفارسى التحصينات الجيدة والسفن التى تملأ اشرعتها السماء والمدفعية المركزة على الحصون، بعد مشاهدة كل ذلك ادرك ذلك القائد عدم جدوي جنوده.

وبحركة استفزازية واستعراضية ارسل القائد مجموعة من الجنود الى خارج القلعة لاثارة الفرس مع مراقبة دائمة على الابراج واطراف الخندق، وارسل سفينة الى قائد هرمز يخبره بمجريات الامور فى قلعة قشم.

معسكر الفرس وهجوم البرتغال عليه

تحت جنح الظلام تقدم الجنود الفرس الى مسافة خمسمائة خطوة من جدران القلعة واقاموا تحصينات ومتاريس رملية في مزرعة نخيل اوصلوها بخندق عميق يربطهم بمجموعات اخرى من الجنود في منطقة المحاجر.

ومع بزوغ النهار تقدموا نحونا وهم يصوبون بسهامهم ويثيرون جلبة عظيمة ففتحت قلعتنا وسفننا نيرانها عليهم وسقط الكثير منهم بين قتيل وجريح وهدمت تحصيناتهم التي اقاموها في الليلة السابقة.

وتوصل البعض منهم قرب الخندق مكيلا الشتائم لنا ولكن لم نخرج خارج جدران القلعة بل حاربنا من خلفها بعد وصول الامداد من هرمز اجتمع مجلس القيادة وقرر ارسال مجموعة مهاجمة لنقاط تجمع الجنود الفرس ولذا قرر القائد ارسال الف من الجنود البرتغاليين واربعمائة من الهرمزيين على ان تعقد المجموعة الاخيرة اربطة بيضاء حول ذراع كل جندي لتمييزه عن الجنود الفرس وقسمت هذه الدفعة الى مجموعتين تحت قيادة بلثيزار دي شافيز وسباستيو بيريرا دي ماسيدو.

كان المطلوب من المجموعة الاولى ان تتقدم بمحاذاة الساحل الى ان تصل الى مزرعة النخيل وتقتل جميع من فيها اما مجموعة بيريرا فكان المطلوب منها التقدم الى منطقة المحاجر على ان يقوم الجنود في هذه المجموعة باستخدامها كخنادق اذا ما احتاجوا ذلك اثناء مجابهة العدو.

وكان على هذه الدفعة المتقدمة العودة فورا الى القلعة اذا ما نفخ في

النفيـر واطلقت طلقة واحدة من مدفع حـصن (سبريتو سـانكتو) الا اذا تطلبت الامور عكس ذلك.

وارسل القائد مـعلومات الى السـفن الراسية عن الخـطة المذكورة عند وصول بيريـرا الى الموقع المطلوب فتك هو وجنوده بستمـئة من الجنود الفرس الى جانب عدد كبير من المصابين وقطعت رؤوس الجميع.

اما مجموعة بلثيزار شيفاز فقد وصلت الى مزرعة النخيل ووجدت ان عددا كبيـرا من الفرس ذهب لنجدة المجموعة الاخـرى ومع ذلك فقد قتل العدد الكبير ودمر التحصينات واستولى على الموجودات فى الموقع.

نفخ فى النفيـر مرتين واطلق المدفع كذلك علامة علـى طلب الانسحاب والعودة الى القلعة ومع تردد كبير استجابت القوة وعادت الى القلعة كما طلب منها مـع فقد جندى برتغـالى وجرح ثلاثة آخريـن وقتل اثنين من جنود هرمز بالخطأ.

علقت رؤوس الجنود الفرس القتلى خارج القلعـة على حبال مشدودة بين مجـاذيف السفن الراسيـة فى الميناء رغم الاصابات الجمـة وارتفاع عـدد القتلى فى صـفوف الجنود الـفرس الا انه وفى اليـوم التالى كـان عددهم اكبر من المتوقع، ورغم القصف المدفعي المتواصل ضدهم وتوجيه البنادق الى صفوفهم على مدى سته ايام متواصلة فان كل ذلك لم يثنهم او يقلل من عزمهم على الهجوم ضد القلعة.

اجتمع مجلس الحرب مرة اخرى بقيـاةد القائد وقرر ارسـال مجموعة جديدة لملاقاة الفرس خارج القلعة.

فى الليلة التـالية شكلت ثلاث مـجمـوعات بلغ عـددها جمـيعـا الفان

وستمائة من الجنود وتحت ادارة عسكرية كالتالى الف وستمائة من البرتغاليين وستمئة من الجنود الهرمزيين تحت قيادة القائد الهرمزي علي كمال.

قام الجنود البرتغاليين بالاعتراف الى القساوسة قبل منتصف الليل وفى الثالثة صباحا ابتدأت الطوابير فى الحركة يتقدمها القائد دوم مانويل دى ازيفيدو معه القائد ايوا بيريرا دي ماسيدو والكابتن مانويل كاباكو وفيرناو دى باروس وبراس رود ريجوس بنها وبيدرو الفاريز وقادة من جيش ملك هرمز.

اما المؤخرة فكان يغطيها القائد العام ومعه دوم ايوا داسيلفيرا، بلثيزار شافين، دييجو بيريرا دى ماسيدو، هيرونيمو تافارس، لورنسو الفاريز جهمورو، دوم مانويل ديسوزا، فيرناو ريبيلو، بيروجومس دى ازفيدو، وماجويل بوتيلهو رقيب قلعة هرمز القوة الى موقع المهاجر وبستان النخيل ولم تجد الفرس هناك ولذا قرر القائد البقاء فى هذه المواقع حتى الفجر والذى مع بزوعه وصل معسكر البرتغاليين جاسوس واخبرهم بأن الجنود الفرس خلف تلة قريبة.

قرر فيريرا التوجه الى موقع الفرس والذى يبعد نصف فرسخ وكان الفرس فى تشكيلات عسكرية ثلاثة الاف من المشاة وثمان مائة من الفرسان ولم يحارب البرتغال فى هذه المعركة لحرارة الشمس وقلة النوم الليلة السابقة، فاعطيت الاوامر بالانسحاب وثلة البنادق فى مؤخرة الجيش.

اتجه الفرس تجاه القوة المنسحبة فتصدت لهم البنادق وقتلت العدد الكبير من الرجال وعاد الجميع الى القلعة مرة اخرى.

القبض على اربعة جواسيس فرس، والحصول على انباء ومعلومات عن معسكر الفرس، ومغادرة القائد الهرمزى دوم مانويل دي ازفيرو ومعه رجاله واسباب ذلك

مع استمرار مقاومة العدو اضطررنا فى رفع علو جدران القلعة لكى يتسنى لنا استخدام اسلحتنا بصورة احسن وما ان انتهينا من ذلك حتى وردت لنا انباء عن وصول امدادات بشرية من ارض فارس لتلتحق بالقوة المحاصرة للقلعة وبناء على ذلك اصدر القائد العام اوامره المشددة بمنع مغادرة القلعة لاي سبب كان.

ومع هذه التطورات الجديدة ودخول الحر الشديد لم نجد غير الخيام المصنوعة من القطن الفسطاطى لحماية الجنود، ومع ذلك لم تمنع لهيب الرياح الشمال الشرقية والتى تسمى هنا (فيرم) وتعنى الرياح الحارقة.

ومع ذلك قرر فيليب دى افونسيكا واثنان من الجنود الذهاب الى منطقة المحاجر اذ بما يكون الجو الطف هناك من القلعة.

وبعد ساعتين مر بالموقع اثنان من مواطنى الجزيرة وبغال محملة بالفواكة وعرضا بضاعتهما على الجنود تحاشيا من الذهاب الى القلعة.

اشترى الجنود الفواكة وطلبا من الفارسيين احضار كميات اخرى.

وصلت انباء خروج المجموعة الى القائد العام فأرسل فرقة للبحث عنهم وبعد جهد وجدت هذه المجموعة فى كهف فى منطقة المحاجر.

اعتذر الضابط المرافق للجنود عن فعله ذلك وطالب القائد ان يعاقبه نيابة عن الاخرين حيث كان هو السبب وراء خروجهم متعللا بان سيدنا ادم خرج من الجنة من أجل تفاحة ولقد وجد هذا الضابط نفسه يخرج من القلعة لانواع كثيرة من الفواكة الى جانب لطافة الجو الخارجي.

قرر القائد ان تبقى هذه المجموعة فى الخارج واعطاهم مبلغ من المال رشوة للفارسيين على ان تقوم باعتقالهما حال عودتهما ونقلهما الى القلعة.

بعد مغادرة القائد عاد الفارسيان ومعهما اثنان آخران يحملان فواكة جمه بقصد بيعها الى جنود القلعة طلب فيليب من المجموعة الفارسية اللحاق به الى القلعة حيث سوف يحصلُون على اسعار مناسبة للفواكه.

كان القائد فى انتظار المجموعة الفارسية والذين ما ان وصلوا الى القلعة حتى ابلغهم بأنه يعتقد انهم جواسيس للاعداء وانه سوف يتركهم وشأنهم اذا ما اعترفوا بذلك اما اذا اخفوا الحقيقة فسوف تقطع رقابهم.

لم يقتنع القائد بادعاءات المجموعة بأنهم من الفلاحين وانهم لا يعلمون شيئا عن الاعداء لذا قرر قطع رقاب ثلاثة منهم امام الرابع والذى قرر بعد ذلك الاعتراف بشرط الحفاظ على حياته واعطائه سفينة تنقله الى مكان آخر.

اخبر الفارسي القائد بان المجموعة كانت مرسلة من قبل القيادة الفارسية بقصد التجسس وان كبيرهم كان برتبة ضابط وقائد لمجموعة تقدر بالفين من الجنود هذا وقد جند خان شيراز خمسة وعشرين الفا من الرجال فى لار لغرض ارسالهم الى الجنرال امام قلى خان (ابن اخ خان شيراز) وقد وصل ثمانية الاف من النبالة فعلا الى الجزيرة.

بعد ذلك عُهد الى القائد كمال بالسجين الفارسى وارسلت الانباء الى هرمز عن الخطر القادم.

قرر القائد العام بناء الجدران للخندق وشارك الجميع فى ذلك

وخاصة دوم ايوا سيليفيرا والذى اصيب بالحمى نتيجة لذلك وقرر القائد ارساله واتباعه الى هرمز وتوفى فيها بعد عدة ايام.

وفى اثناء فترة العمل فى الخندق طعن اثنان من الجنود الضابط المسئول عنهم والتجأوا الى جناح دوم مانويل دي ازفيدو عندما بلغت الانباء الى القائد العام ذهب الى الجناح المذكور واحضر الجنود وثبتوا بالمسامير من خلال ايديهم فى بوابة القلعة.

لم تعجب تصرفات القائد الدوم مانويل دى ازفيدوا وخاصة انه كان رئيسا سابقا للقائد العام عندما كان الاخير يعمل تحت ادارته فى الشمال فى شول عندما كان الاول حاكما لها فى عام 1613م.

قرر الدوم مانويل بعد هذه الاهانة التوجه الى هرمز وجمع كل الموالين له ومتاعه وغادر جزيرة قشم وبذا فقد القائد العام اثنين من احسن ضباطه.

كيف ارسل القائد السفن لمنع عبور الفرس من اليابسة وكيف هوجمت مدينة كنج

لقد بذل القائد جل جهده في تقوية الخندق لعلمه بأن الفرس كانوا خبراء اكثر من غيرهم في سلاح الهندسة وصناعة الالغام (هذه الخبرة مكتسبة من الحروب الترك ـ فارسية).

ارسل القائد خمسا وعشرين سفينة كبيرة لاعتراض الجنود الفرس القادمين من اليابسة حسب المعلومات التى حصل عليها من الجواسيس الفرس وكانت هذه السفن تحت قيادة القبطان هيرونيمو شافيرس ـ سباستيو بيريرا دي ماسيدو، انتونيو بالاها، لورنسو الفيرز شمورو، لويس مارتنين، براس رودريجوس بنها، بيرو جومس ازفيدو، مانويل كباكو، لويس سيراو، ايوا دي اندرا ديجاما ـ مانويل ديسوزا وأخيه بيدرو الفاريز دي كاستيل برنكو ـ دييجو دي ماسيدو ـ جاسبر بيريرا بايز ـ فرنسيسكو دي افونسيكا ـ انتونيو ليتاو او كامارا ـ وسفن اخرى صغيرة برتغالية.

طلب القائد من قيادته نصب خط دفاعي بحري من (لفت) في رأس جزيرة قشم الى سيدان او سارميو على الشاطىء المقابل على ان ترابط السفن الكبيرة على مرمى قذيفة مدفع من الاخرى وان تجعل بينها وكل واحدة اخرى سفينة صغيرة ـ مع اوامر مشددة باغراق او حرق اية سفينة فارسية متقدمة وقتل جميع بحارتها.

بقيت ست سفن كبيرة واثنتا عشرة سفينة اصغر في جزيرة قشم، وحتى لا تعتقد الشواطىء الفارسية انها آمنة من العدوان البرتغالي

ارسل القائد القبطان ايوا فيراو دي كـاستيل برنكو (الرجل المتزوج من هرمز) الى ساحل كنج لتدمير قـراه ومنازله ـ تبعد كنج اربعة اميال من شمال شرقي لنجة ـ وبها قلعة برتغالية بنيت في فترة تالية لهذه الفترة.

مـع القبطان ايوا فيـراو ارسلت الست سفن الكبرى ومعهـا مـائتان من الجنود البرتغاليين وسفن اخرى صغـيرة مع قائد ملك هرمز علي كمال (هذا القـائد الذي التـحق بملك هرمـز بعـد ان قتل الشـاه اباه وأخـويه واصبح الآن طامعا في قتل اي فارسي يقع في يده).

وصل هذا القـائد مع غـروب الشمس الى كـنج والتي تبعـد سـبعـة فراسخ من قشم دون ان يحس بهم الحراس الفـرس في المواقع المتقدمة على الساحل وكان اهل البلدة نيام.

نزل القائد البرتغالي على رأس قوة برتغالية عددها 150 جنديا وكذلك فعل علي كـمال القـائد الهرمزي ومـعه مـائة وخمسـون من العســاكر الهرمـزيين وبعد عبـور بساتين النخيل دخلوا المـدينة. كانت المدينة دون اسوار وتحميها مـن الجهة البحرية قلعة كبيرة والتى يبلغ عدد حـاميتها 2500 من الجنود الفرس.

ما ان دخـلت القوة الغـازية الى المدينة حتى حـرقت ودمرت ونهـبت وقتلت ونقلت محتويات السوق الى سفنهـا الراسية في البحر مع تدمير كامــل لثلاث سـفن كبـيرة وثلاثمـائة سفـينة صـغـيرة في الميناء قـبل انسـحابها تاركة ستمـائة منزل يحترق واثنين من الجنود البرتغاليين في تعداد المفـقودين في العـملية الحربيـة. بعد هذا التـدمير الشـامل عادت القوة الى قشم.

اعتقال شيوخ رميس

اكمل القائد اصلاحاته للقلعة والتى رغم موقعها القريب من البحر (مائة خطوة) كان لابد من ضمان الانسحاب منها الى السفن الراسية في البحر دون اي مواجهة مع العدو الفارسي فيما لو تم حصارها بواسطة القوة الفارسية المتوقع وصولها.

في هذه الفترة تم بناء حائط آخر يمتد في اتجاه البحر (وفي الجهة الجنوب شرقية) وكانت بداية هذا الحائط عند برج سانتو انتونيو وعلى ارتفاع ثمانية عشر قدما وبعرض قدره خمسة اشبار وينتهي ببرج آخر مبنى في البحر.

ومن برج القائد العام بني جدار مماثل وبنفس المقاييس وبعد الانتهاء منه اصبحت القلعة وكأنها جزيرة في البحر يحيط بها الماء من كل جهة والى البحر.

في احدى زوايا برج سانتو انتونيو كان هناك باب صغير وباب آخر في احدى زوايا برج القائد العام.

وامام كل باب ساتر جداري يمتد تحته سلم يصل الى قاع الخندق المحيط بالقلعة حتى انه اصبح ممكنا لأي شخص النزول اليه دون معرفة هذا الطريق السري.

وفي نفس الوقت اصبح من الممكن وصول الامداد البشري عن طريق البحر لهذه القلعة دون ان ينال منهم العدو المحاصر لها.

تم بناء برج المدافع بقرب برج سانتو انتونيو في بضعة ايام ونقلت الى قمته ثمانية مدافع برونزية سعة 30 رطلا وبذلك اصبحت القلعة جاهزة لمواجهة اي عدوان قادم.

وارسل القـائد طلب سـفن من هرمـز (من فـيـدور دا فـازندا) وذلك لارسالها الى الساحل العربي حيث وصلت الانباء الى قشم عن عصيان عربي في جـلفار (راس الخيـمة) وجـهزت السفن من هرمـز مع تموين يكفي شـهرين فـتم ارسالها الى جلفار، وبعـد عبور اثني عشر فـرسـخا وصلت هذه السـفن الى رأس مسنـدم وبعدها رست في قـمصـار (في الجهـة الشمـاليـة من رأس مسندم) بعـد وصـول أخبـار عن القلاقل في (رميس) شمال رأس الخيمة.

توجهت السفن البرتغالية في محاذاة الساحل العربي حتى وصلت الى خليج عمان (بعد 18 ميـلا جنوب غرب رأس مسندم) وهناك وقع صـدام بينها وبين سفينتين عربيتين قتل معظم بحارتهما ما عدا رجلين بالسفينة التى استمرت مـقاومتها، وعلم بعد ذلك بانهمـا من شيوخ (رميس) في طريقهما الى الشاه الفارسي ويحملان له الخيول العربية.

فأخذهما فـونسيكا والقبطان جاسبر بيريرا الى قـشم وكذلك الخيول المصادرة. فوجيء القـائد بالعودة المبكرة للسفن البرتغـالية المرسلة الى الساحل العربي وبعد ان تم ابلاغه عـن مجريات الامور اعطى (نيابة عن ملك البرتغـال) القبطان فيلـيب دي افونسيكا سـفينة عربيـة بما تحمله مكافأة له على عمله.

دخل شيوخ رميس الى مكان القائد العام (وقد ارتدوا عمائمهم حول اعناقهم) وسجد عند قدميه طالبين منه الرحمة وابقاء حياتهم.

ارسل القائد ممثله مـعراج الدين ـ ضابط من هرمـز ـ ليخبـر الرجال بأنه يعرض عليهم دفع الفدية مقابل اطلاق سراحهم ـ وبعد المناقشة مع معـراج الدين وافق شيوخ رمـيس على دفع 120,000 بطاقة (بتـاكا) مقابل حريتهم.

الهجوم على جلفار

بعد احتجاز شيوخ الساحل هدأت الامور في معظم السواحل العربية ولكن بقيت جلفار ثائرة، ومع فقدان جلفار شيخها اصبح من الممكن احتلالها وتأديب الثوار فيها، لذا ارسل القائد سفينتين الى هناك بعد تزويدهما بمدافع عيار 30 رطلا تحت قيادة الضابط هيرونيمو تافارز وترافقه عدة سفن تنقل جنودا من هرمز ايضا.

طلب القائد من الشيوخ المتجزين لديه في قشم كتابة رسالة الى من ينوب عنهم في الساحل العربي من اجل دفع الكفالة المطلوبة لاطلاق سراحهم، وفي نفس الوقت صدرت الاوامر لقائد الارمادة بان يطلب من «ركن الدين او قطب الدين» حاكم جلفار المعين بواسطة ملك هرمز والثائر عليه بان يقوم بتسليم قلعته وجنوده الفرس والا سوف تقوم السفن البرتغالية بقصف القلعة وقتل كل جنودها وحرق ما بها.

ارسل (ركن الدين او قطب الدين) جوابه قائلا بانه مستعد للحرب ولن يتنازل عن قلعته وانه سوف يقابل الغزاة على الساحل في الصباح التالي.

عقد هيرونيمو اجتماع مجلس الحرب مع حضور القائد الهرمزي علي كمال وقرر الجميع احتلال المسجد الجامع والتحصن فيه وقتل كل من يصادفهم من رجال.

نزلت القوات البرتغالية والهرمزية الى الساحل واعتصمت وتحصنت في المسجد وارسلت قوات صغيرة الى ضواحي المدينة لحرق منازلها وقتل سكانها.

بعد عودة هذه المجموعة قام الرجال ببناء الابراج ونصبت المدافع عليها وعلى المسجد وابتدأ القصف المدفعي المدمر لقلعة جلفار وتهدمت

جدرانها وقتل الكثير من حاميتها وطلب الناس من (ركن الدين او قطب الدين) الاستسلام للحفاظ على ارواح الناس وممتلكاتهم.

استمر القصف المدفعي فرفع الاهالي الراية البيضاء على القلعة وارسلوا مطالبهم الى القائد المهاجم والتي احتوت على التالي:

1 ـ يسترجع الاهالي كل حاجياتهم والمتواجدة في القلعة.

2 ـ يسمح بالمرور للجنود الفرس مع اسلحتهم الى حيث يشاءون.

3 ـ العفو العام من ملك هرمز.

4 ـ بعد ذلك سوف يقوم (ركن الدين او قطب الدين) بالاستسلام وسوف يجعل مصيره في يد القائد روي فيريرا.

اجتمع مجلس الحرب مرة اخرى ووافق على معظم الشروط ماعدا تلك الخاصة بالجنود الفرس فقد قرر المجلس رحيلهم دون اسلحتهم على ان لا يحملوا متاعا ولا نقودا ولا ملابس اكثر من ما يستر عورتهم وبشرط ان تربط اعناقهم بالحبال وأصر القائد الموافقة على شروطه في خلال ثلاث ساعات والا تم اعدام الرسل الذين جاءوا بالمطالب المذكورة.

وافق الفرس على الشروط بعد الحاح الاهالي وجيء (بقطب الدين او ركن الدين) ومعه خدمه الى القائد البرتغالي.

ارسل علي كمال مع مجموعته الى القلعة لاخبار الفرس بذلك وفعلا تم ترحيل ست مائة من الجنود الفرس وبالشروط السابقة.

عين علي كمال قائدا للقلعة ومعه مائتان من جنود هرمز وباسم ملكها وتمت مضاعفة مرتبه (اعطى علاوة جديدة تبلغ مائتي كروزادوس) وطلب منه ابداء الرفق في معاملة السكان والعناية بهم والتقرب منهم.

لم يستجب ولاة رميس الى طلب الفدية او الكفالة مقابل اطلاق سراح شيوخهم، وبعد فترة من الانتظار غادرت السفن البرتغالية الساحل العربي الى قشم مرة اخرى.

استقبل القائد هيرونيمو استقبالا رائعا بعد عودته الى قشم وانزل الجنود الفرس المنقولين من جلفار (اما قطب الدين او ركن الدين) فقد تم نقله الى السجن ولكن لم يعامل مثل السجناء لقرابته من ملك هرمز.

لم يحمل قطب الدين سيفه معه ولكنه لبس عمامته حول رقبته (علامة الاستسلام والخضوع).

طلب القائد من قطب الدين ازالة العمامة من حول رقبته ويزيل معها الخضوع واحضر له سيفا مرصعا وقدم اليه باسم عمه ملك هرمز وطلب منه البقاء للدفاع عن قلعة قشم اذا ما تم الهجوم عليها.

عندها تقدم السجناء الفرس الى بوابة القلعة والحبال تطوق اعناقهم وسجدوا على الارض طالبين العفو والرحمة، صدر العفو العام واعطيت القوة الفارسية الخيار فاختار الجميع البقاء والمحاربة في صفوف البرتغاليين.

عين قطب الدين قائدا لهذه المجموعة بعد استرداد اسلحتها. في نفس الوقت ارسل القائد سباستيو دي ماسيدو الى الميناء الفارسي المقابل لقلعة هرمز (برامي) وتم تدميره وحرقه كلية وتدمير اثنتين من السفن الكبيرة وثلاثمائة من السفن الصغيرة وكان قطب الدين مرافقا لهذه القوة مع جنوده الفرس بعد عودة سباستيو ماسيدو وصل فيادور دي فازندا من هرمز لدفع رواتب الجنود وجاء معه القائد امرو رودريجوس والذي كان متوجها لقيادة قلعة (صحار) ورافقه في طريق عودته الى هرمز عشرة جنود وسفينة كبيرة لما له من مكانة عالية.

بعد 15 يونيو 1621 وصلت انباء عن تحرك امام قلي خان ومعه خمسة وعشرون الفا من الجنود الفرس.

ارسل القائد العام اربعمائة اسير من سكان الجزيرة الى هرمز والساحل العربي لكي لا يتعرضوا للتعذيب بسبب وقوفهم مع البرتغاليين.

معركة قلعة قشم

لقد وعد امام قلي خان حاكم شيراز (ثاني مركز بعد الشاه الفارسي) بانه (اي الامام) سوف ينتصر على البرتغاليين في خلال عشرة ايام وسوف يدخل قلعة قشم ولذا تم تجنيد عشرة من الجنود الفرس لكل جندي برتغالي هذا واخذ عهدا على نفسه بانه سوف يجبرهم على دخول الاسلام.

في 20 يونيو 1621 وصلت القوات الفارسية الى قلعة قشم واحاطت بها من كل جانب وتوقفت على بعد ربع فرسخ رافعة بيارقها وسط قرع الطبول ونفخ المزامير.

تأهبت القلعة للهجوم ورفعت الاعلام على كل الابراج. اعتقد الفرس ان الغلبة سوف تكون لهم لذا تقدموا بكل جرأة تغطيهم طلقات الرصاص وما ان وصلوا الى مسافة قريبة حتى اعطيت الاوامر ففتحت مدفعيتنا نيرانها مسببة دمارا كاملا في صفوف الفرس والذين رغم ذلك واصلوا هجومهم.

في نهاية النهار فقد الفرس ثلاثة آلاف قتيل. اما في الجانب البرتغالي فكان القتلى البرتغاليون ثلاثة وخمسة من جنود هرمز. شدد القائد اوامره على كل المحاربين داخل وخارج القلعة واعطى التوجيهات بالتمسك بالسلاح والدفاع الى النهاية عن القلعة.

في النهار التالي وبعد قضاء ليلة في المنطقة المحاصرة، فتحت القوات الفارسية نيران مدفعيتها على القلعة تلاها وابل من الرصاص ادى الى قتل ثمانية من افراد الحامية وجرح خمسة وعشرين آخرين.

كان الهجوم الثالث في الليلة الثانية وبعد اقتراب الفرس فتحت نيراننا مرة اخرى واضطررنا الى تعيين ثلاثمائة من الجنود الهرمزيين لحماية الخندق.

جاء الهجوم الرابع على القلعة ووصل الجيش الفارسي الى هدفه الخندق مع محاولات جنود الحامية في الدفاع عن القلعة وخاصة مداخل (الخندق) كانت نتيجة المعركة الليلية سبعمائة قتيل من الجانب الفارسي وثمانية وثلاثين من الجانب البرتغالي ـ الهرمزي وثمانين من الجرحى. بعدها تقدم الفرس بطلب هدنة من اجل دفن موتاهم فانتهز القائد الفرصة وارسل الى هرمز يبلغ قائدها عن تطورات المعركة ويطلب منه ارسال الرجال والامداد.

توقف الفرس عن المحاولات واقاموا معسكراتهم في ثلاثة مساجد قريبة من القلعة لعلمهم ان الحامية لن تفتح مدافعها على المساجد هذا الى جانب اقامة بعض المتاريس وحفر الخنادق واقامة السواتر الرملية امام سلاح الخيالة.

هجوم القائد بلثيزار على معسكر الفرس

ارسل قائد هرمز ثلاثمائة من الجنود البرتغاليين وخمسمائة من الهرمزيين ومائتي برميل من البارود واربعة آلاف قنبلة.

بعد وصول هذا الدعم قرر القائد الهجوم على معسكر الفرس، ولذا تم اعداد فرقه برتغالية (400 جندي) واعداد اخرى كبيرة من جنود هرمز وتم تسليحهم ببنادق تشبه المدافع الرشاشة (BACA MARTES) وتطلق خمسين طلقة دفعة واحدة.

عين القائد بلثيزار دي شافيز قائدا لهذه القوة ـ بعد ان رسمت خطة الهجوم واعطيت العلامات المميزة لجنود هرمز وصدرت اوامر استخدام السلاح الابيض وبعدها المتفجر. على ان يتم نقل القتلى والجرحى الى القلعة بعد المعركة علما بان اشارة الانسحاب سوف تكون طلقات مدفعية من برج سانتو انتونيو وبرج سانتياجو يليها صوت النفير.

تم الهجوم على المواقع الفارسية كما خطط له وقتل الكثير من الجنود الفرس وهم نائمون وكذلك كل من جاء لنجدتهم من الخنادق الاخرى وانطلق امام قلي خان مع جنوده الى موقع المعركة والتى كانت غير متكافئة في العدد ولكن اثبت فيها جنود البرتغال انهم لا تنقصهم الشجاعة ولو كان للعالم ان يشهد فإننا ندعوه للشهادة لهم بانهم ابطال المعارك.

قامت (المدافع الرشاشة) بتغطية الانسحاب البرتغالي الهرمزي وعادت القوات المهاجمة الى القلعة مع اعتراف من قبل الجميع بالدور الذي قامت به القوات الهرمزية والفارسية التى التحقت بالقلعة من الساحل العربي.

في اليوم التالي علمنا ان عدد القتلى في القوات الفارسية 1400 قتيل وطلب الفرس هدنة اخرى ورفعوا الاعلام البيضاء وارسلوا اثنين من رجالهم لمقابلة القائد في القلعة.

استجابت الحامية للطلب فجاء الفارسيان وطلبا من القائد رؤية المرأة التى حاربت الى جانب البرتغال في الليلة الماضية والتى كان لوجودها اثر رئيسي في عدم استطاعتهم الحرب لما صدر منها من نور اعمى عيونهم هذا الى جانب رغبتهم الشديدة في مقابلة الفارس المرافق لها والذي كان يقفز بجواده من خندق الى آخر تحت جنح الظلام علما بان هذا العمل مستحيل في النهار.

وبعد مناقشات ومداولات وقسم ورجاء قاما بزيارة مواقع القلعة وتأكدا لما اخبرهما به القائد بعدم وجود امرأة او حصان في القلعة ـ وكان الاعتقاد السائد اما ان تكون تلك الرؤية معجزة من العذراء والقديس جيمس (سانتياجو) نداء المعركة او خطة للفرس لتفقد القلعة من الداخل.

بعد عودة الفارسيان الى خنادق جيش فارس انزلت الاعلام البيضاء وابتدأ القصف المدفعي من جديد.

الهجوم على ميناء كوهستاغ

ارسل القائد الضابط البحري بلشيزار دي شافيز على رأس قوة برتغالية مكونة من ثلاثمائة جندي برتغالي واربعمائة من العساكر الهرمزيين تحت قيادة محمود شاه احد قادة ملك هرمز.

وصلت السفن الثلاث البرتغالية والاثنتا عشرة سفينة الاخرى الى ميناء كوهستاغ وحرقت ودمرت وقطعت الاشجار وهاجمت قلعتها وقتلت الحامية المكونة من الف جندي فارسي فيها وكان الضباط المرافقون لبلشيزار ايوا دي اندرا ديجاما ـ فرنسيسكو جالفاو ـ مانويل دي افونسيكا انتونيو ماوراو والقبطان فورتاروا وآخرون وان عدد القتلى في الجانب البرتغالي خمسة من البرتغال وتسعة من جنود هرمز.

بيعت المنقولات في هذا الميناء في مزاد علني وخصم منه جزء مقابل حصة القتلى من البرتغاليين اعطيت للقساوسة لاقامة الصلاة على ارواحهم اما الجزء الخاص بالعساكر الهرمزيين فقد ارسل الى أهاليهم في هرمز واعطيت النياشين والالقاب لكل من شارك في هذه المعركة.

واصل الفرس حصارهم للقلعة مصممين على دخولها حيث اصبحت بالنسبة لهم اهم من دخول القسطنطينية عاصمة الاتراك، ومع استمرار الحصار استمرت الاعمال العسكرية ضد القلعة وضد تحصيناتها ـ مستخدمين بذلك المدفعية القوية لديهم (اي لدى الفرس).

بعد هذا التقدم الفارسي قرر القائد اسكات المدافع التابعة لهم فطلب من القبطان ماجويل بوتيلو ارسال ثلاثمائة من رجاله المميزين في ثلاث سفن كبيرة من اصل ثلاثين سفينة في لفت.

ارسل ماجويل بوتيلو كلا من هيرونيمو تافارز مانويل ديسوزا وانتونيو ماورو دي اوليفيرا الى نجدة القائد في قشم وارسل معهم الثلاثمائة جندي المطلوبين لذلك.

وصلت القوة المرسلة في 7 سبتمبر الى قلعة قشم وتقرر ان تهاجم القوى الفارسية في اليوم التالي (يوم ميلاد العذراء) انشغل الجنود بالقداس وبالاعتراف للقساوسة والاستعداد لاحداث اليوم التالي.

استدعى القائد بيرو جومس ازفيدو واعطاه اربعة مسامير حديدية كبيرة ومطرقة من اجل اخماد المدافع الفارسية في المحاجر وفعل ذلك ايضا مع فيليب دي انونسيكا من اجل اخماد الاخرى التي في بساتين النخيل.

ارسلت القوة الجديدة تحت قيادة بلشيزار دي شافيز واخترقت صفوف القوات الفارسية تاركة الدمار وراءها والاعداد الكبيرة المقتولة من جنود فارس وكما تمنى القائد تم اخماد المدافع الفارسية وعادت القوة الى القلعة منتصرة.

فى شهر اكتوبر من كل عام تبحر السفن البرتغالية الى جوا وفى هذه المرة ارسل القائد رسالة معها الى الحاكم فيرانودي البوكيرك يخبره عن الوضع العام لقلعة قشم.

«لقد شيدت القلعة كما أراد صاحب العظمة الملك فى جزيرة قشم واستوليت على الموانى الفارسية ودمرت وحرقت المدن وهدمت القلاع المشيدة على السواحل وامنت بذلك الماء لهرمز اننا الآن محاصرون بواسطة خمسة وعشرون الف من الجنود الفرس، فأرجو منك ان ترسل

لنا الرجال والعتاد والامداد والمؤن حتى لا تقر عين الشاه في اصفهان».

ارسلت رسائل القائد الى هرمز وقرر الدوم مانويل ازفيدو التوجه الى الهند بنفسه ليخبر الحاكم العام فيها سبب هجرته من هرمز الى الهند، حاول قائد هرمز دوم فرنسيسكو ديسوزا و الفيادوردى فازندا ثنيه عن عزمه وابقائه لخدمة صاحب الجلاله الملك ولكن رفض الانصياع الى ذلك ـ وهنا اخبره قائد هرمز بأن السفينة بكل ما تحمله تحت تصرفه علماً بأن هرمز تحتاج الى رجل مثله الآن وخاصة انها في حالة حرب.

واذا ما رفض فأنه عليه توقيع الأوراق الخاصة بالرفض على ان ترسل الى الحاكم العام ـ شكر الدوم مانويل قائد هرمز واخبره بأنه سوف يوقع الاوراق بعد مغادرته هرمز فعاد قائد هرمز وطلب منه عدم مغادرة القلعة او السفينة حتى يوقع احتجاج واعتراف قائد القلعة وذلك ما قام به فعلا.

الهجوم على سرميون

وصلت القوة البشرية للجيش الفارسي الى ثلاثين الفاً من المسلحين وبلغت القلعة انباء عن الاعداد للغم كبير من اجل هدم جدران القلعة الامر الذي اثار قلق القائد وخاصة انه لم يكن يعلم اين سيوضع هذا اللغم.

لذا قرر القائد اخذ الحيطة بزيادة عرض الحائطة فأمر ببناء جدار آخر خلف الجدار الاصلي وعلى بعد عشرة اشبار منه على ان يرتبط الجدران بروابط جدارية بنفس العرض وبعد اتمام ذلك تم ملىء الفجوات الناتجة فأصبح الجدار سميك واقوى من ذى قبل.

بعدها قرر تحصين وتقوية الخندق لعلمه بأن الجيش الفارسي سوف يهاجم بين برج اسبيرتو سانتو وسانتياجو وطلب من الجنود ان يضعوا اذانهم على الجدار الواقع بين هذين البرجين لكي يتمكنوا من الاستماع لاعمال الحفر اذا ما قرر الفرس زرع الالغام فى هذا الجدار.

ارهقت هذه الاعمال الجنود والذين قضوا كثيرا من الوقت فى اعمال الخندق وفى وسط المياه البارده فيه فى شهر ديسمبر مع دوام يبدأ صباحاً وينتهي فى المساء وتم تحصين الخندق وبنيت فيه السلالم السرية التى تقيد الى داخل القلعة وبعد الانتهاء من ذلك ارسل القائد الرسائل والتى يطلب فيها من ماجويل بوتيلهو الاتجاه الى قلعة (سرميون) (saramiao) وهدمها بكل مالديه من قوة شراعية (على اليابسة).

بعد اجتماع المجلس توجه ماجويل بوتيلهو فى ثلاثين سفينة الى (سرميون) وفتحت هذه السفن مدافعها على القلعة المذكورة ونزل

الجنود البرتغاليون فى ثلاثة تشكيلات هجومية اربعة مائة منها تحت قيادة القائد ماجويل بوتيلهو ـ وثلاثمائة من الهرمزيين ومائة وخمسون من البرتغاليون تحت قيادة انتونيو بالها يرافقهم ثلاثمائة من البحارة يحملون الفؤوس والسلالم الطويلة والعريضة والتى تسمح لاربعة رجال ان يتسلقوها فى آن واحد توزعت القوة الغازية الى مجموعة تهاجم المدينة تحت قيادة انتونيوبلها اما القوة التابعة لماجويل فقد توجهت لمهاجمة القلعة.

وصلت القوة المهاجمة للقلعة ونصبت السلالم وصعد الجنود البرتغاليون عليها، وتحت وابل من رصاص الفرس استطاع هؤلاء الجنود من دخول القلعة وقتل عدد كبير من المدافعين عنها، عندما رأى اهل المدينة ذلك فروا منها وتركوا كل ما يملكون وراءهم.

بقى البرتغاليون يومين فى المدينة جمعوا فيها مسروقات نقلت فى عشرين سفينة كبيرة.

قام الجنود قبل مغادرتهم المدينة باضرام النار فى بساتينها ومنازلها وهدموا القلعة.

عاد القائد الغازي الى مواقعه الاصلية وارسل يخبر فيريرا بنتائج المعركة ومع رسالته ارسل عشرين سفينة محملة بالمسروقات والتى قام فيريرا بإرسالها الى هرمز ليتم نقل محتوياتها الى الخزينة العامة مطالباً امينها بدفع رواتب الجنود.

الهجوم على جزيرة جسك

لم يتوقف القائد عن مهاجمة الفرس ولكن كان لجزيرة جسك اهتمام آخر حيث كانت مقر مستودع الانجليز فى الخليج، لذا ارسل ثماني سفن كبيرة (غلايين) بقياده بلثيزار دى شافيز ومعه بيرو جوميس ازفيدو، وديبجو بيريرا دى ماسيدو، او كومارا وبراس رودريجوس، ايوادى اندراديجاما، فرنسيسكو كونكلافز وفرنسيكوا نتونيز ومعهم ثلاثمائة من الجنود البرتغاليين واربعمائة من الهرمزيين فى عشرين سفينة صغيرة وكان القصد من هذه العملية الحربية التدمير الكامل لمدينة وميناء جسك.

فى 1- ديسمبر ابحر القائد بلثيزار الى جسك واتفق ذلك مع رفع الاعلام البيضاء على معسكر الفرس.

عندما بلغ القائد بذلك رفع العلم الابيض على برج سانتياجو كإشارة للموافقة عندها تقدم من الخنادق الفارسية - جندي يرتدي درعاً يصل الى ركبتيه ويحمل ترساً مزيناً بالزهور الذهبية ويحمل سيفاً فضياً فى قراب مخملي اخضر اللون وتغطي رأسه عمامة تلتف حول قبعة ذات ثمانية اركان سوداء مذهبة.

ادعى هذا الفارس بأنه حفيد رسول الله وجاء يطلب مبارزة الفرسان البرتغاليين ويتعهد الامان لمن يخرج له من القلعة ويكافىء من ينتصر عليه بسيفه ودرعه ورأسه وان رحلته من اصفهان القصد منها اختبار جرأة البرتغال.

تقدمت مجموعة كبيرة من البرتغاليين بطلب مبارزته وحتى ان القائد نفسه فكر جلياً في الأمر ولكن قرر ان لا يستجيب الى هذا التحدى علماً منه بأن الفرص قادمة للجميع لاثبات ولائهم للملك واشهار شجاعتهم.

تقدم شاب يدعي فيليبي افونسيكا من القائد يطلب منه السماح له بالمبارزة مع الفارس الفارسي، ولكن ولصغر سن هذا الشاب (18 سنة) اخبره القائد ان لا يهتم بهذا الموضوع الآن.

لم يقتنع الشاب بهذا الرد فتسلل عبر الخندق لابسا درعه وحاملا سيفه وترسه ودخل فى مواجهة الفارسي فى الارض المواجهه للقلعة وبعد معركة شديدة وطعان انتصر البرتغالي على الفارسي وقطع رأسه بسيفه وحمل السيف والترس والرأس معه الى القلعة وسط اعجاب المشاهدين من الجانبين.

كان القائد فى انتظار فيليبي عند عودته واعتذر الشاب للقائد لعصيانه امره وعزى انتصاره لاستخدامه سيف القائد وترسه فى المعركة.

اصدر القائد امره بسجن فيلبى واعدامه بعد ذلك لمخالفته الأوامر الصارمة، ولكن وبرجاء من جميع الجنود والقادة اعفى عنه واعطى رتبة فارس على ان يستخدم السيف الذي حصل عليه من الفارس كسلاح له.

بعد وصول بلشيزار الى جسك نزلت جنوده فى الليل الى المدينة ودمرت وأحرقت وقتلت كل من قابلها دون مراعاة للجنس او العمر وبعدها دمرت مخازن الشركة الانجليزية وقتلت كل من بها. بعد الانتهاء من ذلك تولى حملة الفؤوس قطع الاشجار وتدمير البساتين كلها فى جسك قبل ان يعود الاسطول الى قشم دون اصابة احد من الضباط او الجنود.

مع هبوب رياح المانسون توقع القائد وصول السفن الانجليزية الى رأس جسك لنقل الحرير الفارسي، ولذا جهز سفينتين، مع زاد وعتاد يكفي شهرين وتحت قيادة اندريه كوتينهو ودومينجوس بيريز فيريرا لمراقبة البحر ونقل الاخبار الى قلعة قشم.

بلغت القائد انباء ان حامية كونج قد استولت على سفينة هرمزية تحمل عشرة جنود من هرمز (لاشكران ـ جنود فرس)وقد قتلوهم وقطعوهم الى قطع صغيرة معروضة للبيع انتقام من البرتغاليين وما سببوا من دمار وارهاق للسواحل الفارسية فأرسل القائد فيريرا معراج الدين ترافقه اربعمائة من عساكر هرمز الفرس وكتب الى ماجويل بوثيلو للأنتقام من قلعة كونج وبعث بألف وخمسمائة فأس لكى تقطع الاشجار فى كونج وتدمر كل بساتينها.

وصل معراج الدين الى ماجويل بوثيلو وبعد الاستعداد توجه الجميع الى كونج.

مع طلوع الفجر وصلت القوة الى كونج فخرجت القوة الفارسية المقيمة فى قلعتها (3000 جندى) لمواجهة البرتغال ومنعهم من النزول الى الشاطىء.

فتحت السفن البرتغالية مدافعها على المرابطين على الساحل، وقتلت الكثير من الفرس.

وقبل ان ينتصف النهار توجه الفرس الى القلعة مرة اخرى للاحتماء فيها.

الهجوم على كنج

نزلت القوة المهاجمة الى البر وتسلقت جدران القلعة ـ تحت وابل من مختلف الاسلحة الفارسية والتى ادت الى مقتل اربعة عشر برتغاليا واثنين من عساكر هرمز.

واثناء هذه المحاولة فتح الفرس الباب المواجه لليابسة محاولين الهرب من القلعة وانتهز سباستيو بيريرا دى ماسيدو الفرصة ودخل القلعة وقتل كل من وجده بداخلها وانتقم الهرمزيون لقتلاهم واضرموا النيران فى المدينة التى بقيت مشتعلة عدة ايام وبعد سلب ونهب المدينة والقلعة عاد الاسطول الى مواقعه الاصلية وارسل سباستيو بيريرا ومعراج الدين ليبلغا القائد بنتائج المعركة.قرر القائد التوجه بنفسه الى رأس جسك لمنع الانجليز من نقل الحرير حيث اصبح ميناء جوادر مغلقا بواسطة السلطان المغولي فى وجههم ولذا لن يستطيعوا نقله من طريق البر توجه القائد الى هرمز بعد تعين بلثيزار دى شافيز قائدا لقلعة قشم وعند وصوله الى هناك استقبل بكل حفاوه وتكريم يناسبان مكانته.

ابتدأ الاستعداد فى هرمز لاعداد السفن واختيرت السفينة تودوس اوسانتوس لتكون سفينة القيادة حيث استخدمت من قبل بواسطة نائب الملك فى الهند الدوم هيرونيمو فى مهاجمة الهولنديين فى سورات.

هذه السفينة تحمل ستين مدفعاً برونزياً والسفينة فكتوريا والتى تحمل اربعة وستين مدافعاً برونزياً.

ومعها السفينة ساو مارتينو والسفينة كونبسياسو والسفينة ساولورنيسو وسفينه القيادة القديمة ساوبيدرو بعد عدة ايام من العمل المتواصل اصبحت هذه السفن جاهزة للعملية الحربية.

واصبحت السفينة تودوس وسانتوس سفينة القيادة والسفينة فيكتوريا سفينة نائب القائد فى هذه الأثناء وصلت سفينتان من الهند تحملان رسائل الى قائد هرمز وملكها ورسالة ثالثة الى روي فيريرا من الحاكم العام فى الهند فيرناو دى البوكيرك وكانت رسالة فيريرا موجهة اليه بصيغة جوابية لرسائل سابقة وتقول: عندما جهزت هذه السفينة الخاصة لرحلتها الى طرفكم وصلتني رسالتكم المؤرخة 14 أغسطس والتي تبلغون فيها عن اموركم وعن قلعة قشم وكذلك كتب الى القبطان دوم فرنسيسكو ديسوزا والفيادور فازندا من هرمز لقد توقعت ورأيت ما يجري لكم وقد حذرت سعادتكم من عواقب الامور وكان المفروض منك ان تأخذ بنصيحتي ولا ان تغرك اعوامك الثلاثون، وتعتقد انك تستطيع تحقيق ما عجز عنه العالم.

انني الآن فى السبعين من عمري ولدى الخبرة الكافية والادراك للمخاطرة التى يتعرض لها مضيق هرمز ومع ذلك كان فى اعتقادك انك تدرك اكثر مني وتقرر مستقلا قرارات تعرض الجميع للمخاطر».

بعد قراءة الرسائل اجتمع مجلس المملكة فى قلعة هرمز وكان ملك هرمز حاضرا فقرر فيريرا انه على اتم الاستعداد للذهاب الى جسك وليس هناك داعي للتأخير.

تحدث ملك هرمز وقال «انه لا داعي لمحاربة الانجليز حيث ان قوتهم اكبر من قوة البرتغال هذا الى جانب ان قلعة قشم معرضة لهجوم جيش خان شيراز ولابد من اخلائها فورا لأنها قد تصل الى حالة لا نستطيع انقاذها من البر أو البحر فلذا لابد من بقاء السفن فى هرمز اذ ربما

نحتاج لها لاخلاء قلعة قشم. ومع دخول الانجليز من اجل حرير فارس ليس هناك تهديد مباشر لقلعة هرمز او مملكتها حيث انهم قد فعلوا ذلك من عدة سنوات ولم ينتصروا على احد حتى وعندما كانت الهند قوية، علماً بأنهم لو هاجموا قشم فسوف نكون فى وضع احسن لو انطلقت السفن الهرمزية من مخابئها فى هرمز لمواجهتهم. وبعد مناقشات طويلة توصل المجلس الى تأجيل الهجوم على جسك وعاد روى فيريرا الى جزيرة قشم.

هدم قلعة لفت

بعد عودة القائد قرر أن يرسل اسطوله هذه المرة الى لفت حيث جهز قوة قوامها ثمانمائة جندي برتغالي وسبعمائه جندي هرمزي فى عشرون سفينة كبيرة وثلاثون اصغر منها.

كتب القائد فى نفس الوقت الى قائد قلعة هرمز يخبره بنواياه ويطلب منه ارسال اكبر عدد من الجنود البرتغاليين لحماية قلعة قشم خشية ان يهاجمه الفرس اثناء غياب الاسطول وكذلك ارسلت الرسائل الى ملك هرمز بشأن نفس الموضوع فأرسل المتطوعين من الطرفين الى قشم.

عند وصول الارماده الى لفت ارسل قائدها الفارسي مستهزئاً بأنه لديه الاستعداد لمواجهة البرتغال كلها وليس هذا العدد الصغير من جنودها.

اجتمع بلثيزار قائد الارماده مع معراج الدين قائد الهرمزيين فى سفينة الاخير وقرروا النزول ليلا الى الساحل الرملي فى الشمال الشرقي من لفت وبعيدا عن مصب النهر حيث الرمال على ان تتوجه الغلايين الى قلعة لفت وتبدأ بقصفها المدفعى.

وكما كان التخطيط للهجوم تقدمت السفن الكبيرة وابتدأت بالقصف المدفعي للقلعة فخرج ألفان من الفرس لمنع نزول البحارة الى اليابسة.

ومع تواجد الدفاع الفارسي استطاع رجالنا النزول تحت غطاء من قصف البنادق وهجوم معراج الدين وكل الاحتياطي الهرمزي صمد القادة البرتغاليون وكان يتزعم بلثيزار القيادة وسباستيو بيريرا ماسيدو وهيرونيمو كالفارس وبيرو جومس ازفيدو واستمرت المعركة

من الثالثة صباحاً حتى الثانية ظهـرا عندما سقط القائد الفارسي نتيجه طلقه من البنادق البرتغاليه فأدى ذلك الى تفرق القوة الفارسيه وهروبها من الميدان.

صدرت الاوامـر الى مـعراج الدين وجنوده الهـرمزيين بحـرق المدينة ونهب كل مـا يمكن نهبـه وفي نفس الوقت تم ابلاغ الجنود البرتغـاليين باعدام وقـطع كل النخيل والاشـجار وحـرقها عندمـا دخل بلشـيزار الى القلعـة وجـدها مملوءه بالرجـال الكبـار والنساء والاطفـال وقـرر قطع رؤوس الجميع دون رحمه واحرقت المخازن والسفن.

قتل في هذه المعركة عشرة من البـرتغاليين وستة وعشرون من جنود هرمز وتم نقل كل المسروقات الى السفن التي عادت الى قلعة قشم.

بعد عودة الرجال من لفت قـرر القائد مهاجمة القـوة المحاصرة للقلعة وعين بلشـيزار دي شافـيز قـائدا لهذه المجمـوعة ومـعها ارسـلت القوة الجديدة القادمة من هرمز على ان يكون الهجوم في منطقة المحاجر ومن خلف خنادق الفرس لحصرهم بين الجيش المهاجم وجدران القلعة.

كانت حصـيلة هذه المعركة ستمائـة من الجنود الفرس قتلى والف من الجرحى وثمـانية عشـر قتيلا بـرتغاليا وثلاثين من الهـرمزيين واحكام الاعدام التي اصـدرها امام قلي خـان وتم تنفيـذها في حراس المحـاجر الفرس الذين كان عليهم حراسة منطقة الهجوم.

بداية المواجهات البرتغالية ـ البريطانية

بينما كان الفرس يريقون دماءهم في محاولات يائسة لاحتلال قلعة قشم، وصل اسطول النجدة القادم في الهند تحت قياده سيماو دوميلو ومعه القاده لويس دي برتو ودوم كونسالو داسيلفيرا والذي سبق وأن ارسله القائد الى الهند لعدم طاعته وصل الاسطول المذكور الى قلعة قشم وادى التحية لها بأطلاق مدافعه فخرج لاستقبال قادته بلثيزار دى شافيز وسباستيو بيريرا دى ماسيدو ونقلوا تحيات القائد.

نزل سيماو دوميلو من سفينته الى سفينه صغيرة نقلته الى الشاطىء حيث كان القائد في انتظاره يرافقه القاده الاخرين والجنود من قلعة قشم.

عقد اجتماع مصغر في الركن المخصص لـ دوميلو وبعد ان نقل اخبار الهند وحوادث المملكة قام بتسليم مجموعة من الرسائل الى القائد مرسلة من قبل الحاكم العام فيرناو دى البوكيرك والتي يرد فيها على رسائل القائد فيريرا المرسلة له في شهر اكتوبر.

نقلت هذه الرسائل تهنئة الحاكم العام لفيريرا على انجازاته وكذلك اخبره عن الدفعة القادمة من الدعم المادي والبشري والتي في طريقها اليه بقيادة كونتستانتينو ديسا الى جانب ماوصله من قوة بشرية قوامها خمسمائه جندي برتغالي وستمائه برميل بارود واللحوم والارز والزبدة مع دوميلو وطلب القائد مائة برميل من البارود واللحمة والزبدة وأمر دوميلو بالابحار بالاسطول وما يحمله الى هرمز بعد ذلك.

بعد مغادرة دوميلو وصل الى قشم دومينجوس بيريز والذي سبق أن ارسله القائد الى جسك لمراقبة السفن الانجليزيه.

جاء الأخير بأنباء عن السفن الانجليزية وقال «أن عددها تسعة سفن خمسة منها تحمل اكثر من ستون مدفعاً اما الاربعة الباقية فتحمل ست وعشرون على ظهر كل منها.

كانت هذه السفن الانجليزية مبحرة الى طرف هرمز بمحاذاة الساحل الفارسي ومعها السفينة لندن والسفينة جونز (سفينتا القياده) بقياده القبطان ريتشارد بليث والقبطان ويدل - والسفينة الحوت وقائدها وودكوك والسفينة الدلفين وقائدها ستيفنسون والسفينة الاسد وقائدها بيفرشام اما السفن الصغيرة فكانت السفينة روز وقائدها جون جونسون والسفينة ريتشارد وقائدها روبرت دافيز والسفينة شلينج وقائدها وليم والسفينة روبرت وقائدها توماس بيمونت.

ما إن بلغت هذه الانباء الى القائد قرر ارسال الرسائل وباقصى سرعة الى قلعة هرمز محذرا، وطلب من قائد هرمز الدوم فرنسيسكو ديسوزا أن يبعث له بتوجيهاته حيث انه مستعد لأي شيء يقرره في نفس الوقت ارسل الى سفينة نائب القائد (فرنسيكو دي برتو) يخبره بأنه ما ان يشاهد السفن الانجليزية عليه ان يطلق طلقتين من اقوى مدفعين لديه ويتبعها بخمسة طلقات متتالية كإشارة في طلب العون وصلت رسائل القائد الى قلعة هرمز بيد دومينجو بيريز واستلمها قائد هرمز دوم فرنسيسكو ديسوزا وعلم بأخبار الاسطول الانجليزي وعقد اجتماع مستعجل لمجلس مملكة هرمز حضره ملك هرمز وتقرر فيه انه وبمجرد

مـشـاهدة الاسطول الانجليـزي يجـب ابلاغ القـائد فـيـريرا فى قـشم والارماده المتواجـده فى لفت وتجهيز السـفن الراسية قرب قلـعة هرمز للخروج فى قوة واحدة لمواجهة العدو الانجليزى حتى يتم كسر الحلف الانجلو فـارسي وارغـام الفـرس عـلى قـبـول السـلام المشـروط مع البـرتغاليين ـ ولكن اذا مـا حصـل عكس ذلك فإن قـشم سوف تعـتبـر مفقـودة الى الابد وليحمى الله هرمز والتى اصـبح من الأولويات حماية قلعتـها واعدادها للقـتال والمواجهه ـ شـارك الجميع فى ترمـيم واعداد القلعة ولم يمنع تـقدم السن قائد هرمـز الدوم فرنسيسكو ديسوزا من المشاركة فى البناء والترميم وادى ذلك الى اصابته بضربة شمس توفى بعدها بخمسة ايام وبموته انتشـرت فى هرمز شائعة تقول عندما يموت القائد تموت هرمز ـ لقد كان هذا القـائد الرئيس محبوباً من الناس وقد عرف بالـكرم والشـهامـه وكانت فـتره حكمـه فى ديو وهرمز مـتمـيزة بالعطاء والكرم والمساعدة من جيبه الخاص للمحتاجين.

دفن القائد فى احـتفال مهـيب فى كنيسة (الكرملي الحافي القـدميين) وحـضر الدفـن كل القادة فى لـباس الجنازة الاسـود ونكست الاعـلام وقرعت الطبول بصـوت عال وما ان وصل الموكب الى الخندق اطلق برج سانتيـاجو ثلاثة طلقات مدفـعيه واطلق برج ساوبيـدرو اربعة طلقات وسفينة القياده سبعه ونائب القـائد تسعه والسفن الاخرى احدى عشر طلقه لكل واحدة منها.

شارك ملك هرمز ووزرائه فى الجنازة وفقراء هرمـز والبرتغال اسفاً على فقدان قائدهم.

بعـد دفن قائد هرمـز عاد القـادة الى القلعة وعـقد كل من ملك هـرمز والفيادور فازندا وسيماو دوميلو والقادة الآخرين اجتماعا يقررون فيه قائداً مؤقتاً حتى يعين نائب الملك فى الهند قائدا جديدا لهرمز.

عندما عقد الاجتماع وقف سيما دوميلو وخاطب الحضور قائلا: «أيها السادة ان نـائب الحاكم فى الهند قـد قلدني قيـادة هذه القلعة نيـابة عن صـاحب الجلاله الملك وقـد اديت القسم واعـلنت الولاء ـ لذا اطلب منكم اعطائي قيادة هرمز» بعدها قام دوميلو بـتقبيل رساله التوكيل واعطاها الى الكاتب (الافيدور) والذي وافق على محتواها وقام بقراءتها للجميع ـ بعـدها اعطيت القيـادة لدوميلو والذي كـان قائدا مـشهـورا في الهند وقائدا سابقا لمومباسا وهو الذي قتل ثلاثة من الملوك الافارقه خدمة لملك البرتغال. بعد تعيين القائد الجديد توجه الى برج ساو بيدرو وسكن فى كنيسته وذلك لوجود زوجه القائد الراحل ومتاعها فى منزل القياده بعد وفاه زوجها.

استمرت اعـمال الصيانة والترميم وارسلت الرسـائل الى قلعة قشم تخبر قائدها بأحداث هرمز.

بداية سقوط قلعة قشم

لقد اصبح جليا بعد وفاة قائد هرمز انه قد اصبح هناك فراغ قيادى كبير تحتاجه قلعة هرمز فى هذه الظروف الحرجة والمصاعب التى تواجه المضيق ورغم وجود العناصر القيادية فى كل مناطق الخليج الا انها كلها تشترك فى شيء واحد وهو سنوات الخبره حيث ان اغلب القادة من صغار السن.

استمر القصف المدفعي فى قلعة قشم بين البرتغاليين والفرس ليل نهار وشوهدت السفن الانجليزية واطلق نائب القائد مدفعيته كما كان متفقاً عليه ولكن لم تدرك قلعة قشم ذلك وكان عدم الادراك هذا بداية للمآسي التالية.

عاد اندرى كوتينهو من جسك الى قشم ولرداثه الجو اضطر ان يغادر سفينته ويسبح فى اتجاه القلعة والذي ما ان جاورها حتى سأله الحراس عن اسمه فأجابهم وطلب منهم ابلاغ القائد عن وصوله.

عندما تأخر الجنود فى ابلاغ قائدهم توجه اندرى الى بوابة القلعة وواصل طرقها حتى خرج له القائد فى البرج المقابل وسأله عن اسمه وابلغه من هو وامر القائد الحراس بفتح باب القلعة واخبره عن العدد الكبير من السفن الانجليزيه والمسلحة تسليحاً جيدا ومعها عدد كبير من السفن المحلية وكلها متوجه الى جزيرة قشم.

احتار القائد فى امره فإنه إذا ما قرر قيادة الاسطول سوف تعانى القلعة من الحصار وسوف تدمر بواسطة الفرس وفى نفس الوقت اذا ما بقى فى القلعة فأن السفن الانجليزية سوف ترسو مقابل قشم ولن

تنجو القلعة من مدافعها كتب القائد الى قائد هرمز الجديد سيماو دوميلو يطلب منه النصيحة وارسل المكتوب مع اندرى كوتينهو وطلب منه الحركة السريعه فرد عليه اندرى قائلا «سوف يكون الذهاب بأسرع ما يمكن ولكن لا استطيع ضمان العودة لوجود السفن الانجليزية والاخرى المرافقة فى مضيق هرمز» واضاف قائلا «انه جدير بالقبطان (اى القائد) ان يقود الاسطول فى وجه الانجليز وسوف يبقى جنوده فى القلعه مخلصين يذودون عنها بأرواحهم وانه هناك متسعا من الوقت الان ولن يكون كذلك عندما تقترب سفن الانجلين».

ولكن بعد هذه المناقشة قرر البقاء فى قلعته وارسل اندرى الى هرمز.

مع بزوغ فجر اليوم التالى شوهدت السفن الانجليزيه وستمائة سفينة اخرى راسيه مقابل جزيرة قشم تعلوها الاشرعه الحمراء وتنطلق من السفن الفارسية اصوات المزامير.

اطلقت سفينة القيادة الانجليزية ثلاثة طلقات فارغه تحية للقلعة وتلاها خمسة طلقات من سفينه نائب القائد الانجليزي اما السفن الاخرى فأطلقت سبعة طلقات لكل منها وردت القلعة بكل مدافعها المقابلة للأسطول الانجليزي فأصبح الحصار مضروباً حول القلعة من البر والبحر تعززه قذائف المدفعيه الانجليزيه من البحر والسهام والرصاص والمدافع من القوات الفارسية.

توقف القصف ليلا ـ بعد ان استمر ساعتين فى الجزء الأول منه بعدها وصل أندرى الى هرمز وسلم القائد رساله قائد قشم.

ما ان قرأ دوميلو رسالة فيريرا حتى قذف بقبعته ارضاً وقال لأندري «اعدك باعطائك عادات المسيح؟ ومبلغ وقدره مائة كروزو دوس من جمارك جوا وباسم صاحب الجلالة الملك اوافق على نسبك أياً كان بأنه مقبول ـ اذا ما وافقت على العودة الى قشم واحضار قائدها الى هنا ولك الحق في استخدام السفن والجنود والمواد المتفجره كما تريد». غادر اندرى في الخامسه مساء ولكن قابلته سفن كثيرة دخلت معه في معركة ادت الى منعه من التقدم فعاد الى هرمز مره اخرى وسط اصوات القصف المدفعي لقلعة قشم.

قرر قائد هرمز الحيطة ولذا امر بنقل السفن (الغلايين) الراسيه قرب القلعة الى امكنه آمنه وبعيدة عن القصف المدفعي من البحر هذا الامر الذي عارضه عليه ملك هرمز قائلا «انه متعجب من هذا القرار الذي يدل على عدم اهتمام بأنقاذ قشم ولذا فانه يقترح الطلب من نائب قائد الاسطول التوجه الى قشم لمحاوله انقاذها والا فأن القوات المهاجمة لقلعة قشم من البحر والبر سوف تتقدم تجاه هرمز فور انتهاء مهمتها في قشم.

ولذا طالب اعلان التعبئة العامة في خلال ستة ساعات واعدام من يرفض ذلك ـ وطلب فتح الخندق في المنطقة الواقعة تحت برج سانتياجو حتى تنتقل مياه البحر من طرف الى آخر واتمام بناء الخنادق وعدم القاء اللوم على روى فيريرا القائد البطل والذي يواصل بكل شجاعة حماية اربعة جدران طينية في وجه الاعداء ليبقى شرف ملك البرتغال عاليا.

بعد الاستماع الى الملك وافق الجميع على طلباته وتم تنفيذها.

نزول الانجليز الى الشاطىء ووصول امام قلي خان

كانت اصابات قلعة قشم جسيمة وتحت القصف المتواصل واصلاحات الدمار ودفن الموتى وعلاج الجرحى وصلت الحالة العامة الى شبه يأس (كما يدعي الانجليز) والى وحدة واحدة وعزم قوى كما يدعي البرتغاليون.

ادرك الانجليز الحالة التى وصلت اليها القلعة وسكانها فقرروا النزول الى الشاطىء وجلبوا معهم ثمانية عشرة من المدافع الاربعة والعشرون التى لديهم (ذات سعة اربعين رطلاً).

نصبت المدافع الانجليزية فى ثلاثة مواقع - اولها فى منطقة المحاجر والثاني فى بساتين النخيل القريبة والثالث فى منطقة ابعد من ذلك ومع طلوع النهار ابتداء القصف من البر والبحر واستمر يوماً كاملا مما ادى الى هدم بعض الجدران والتى شارك القائد فى اصلاحها ليلا مع الجنود.

بعد استراحة الجنود وتناولهم وجبة من الارز والسمك المملح انطلق صوت البوق فى الصباح الباكر معلناً الاستعداد بالسلاح - كان هذا الاستعداد يختلف عن اي يوم سابق له وذلك لأن القائد الفارسي امام قلى خان قرر الهجوم على القلعة وخاصة بعد ما اصابها من دمار واخبر جنوده الفرس بأنهم سوف تكتب لهم الشهادة او النصر المبين والانتقام من البرتغاليين لما سببوه من اعمال قتل وحرق ونهب فى كل فارس.

كان الهجوم الفارسي هذه المرة خطيرا فقد تقدم الفرس الى كل الجهات وعبروا الخندق ونصبوا السلالم على جدران القلعة - ولكن

ونتيجة لقوة الدفاع البرتغالي المدفعي وكمية الرصاص المستخدم فى البنادق لم يتمكن الفرس من دخول القلعة او تسلق جدرانها واحترق الكثير منهم بواسطة القنابل الحارقة ودفن البعض احياء وقتل بالرصاص كل من حاول منهم قعبور الخندق الى اليابسة مرة اخرى.

توقف الهجوم مرة اخرى ليلاً ويعتقد ان عدد القتلى من الفرس اربعة الاف والكثير من الجرحى، وكانت الروح القتالية عند البرتغالين عالية ولكن تنقصهم المواد والاسلحة ـ فى اليوم التالي استمر القصف المدفعي من كل جهة فتهدمت الجدران وسقطت الابراج ومعها سقطت المدافع واصبح من الصعب تسجيل البطولات التى قام بها جنود البرتغال.

فى الثانية ظهرا قرر امام قلى خان ان يهاجم القلعة انتقاماً لرجال ونساء واطفال فارس والابرياء الذين قتلهم البرتغاليون فى السواحل الفارسية واخبر جنوده انه سوف يكون البادىء فى ذلك وعليهم ان يتبعوه وخاصة انه كان يعلم ان البرتغال سوف يستسلمون للانجليز وليس له وسوف يحتقرونه ويتجاهلون وجوده.

هجوم إمام قلي خان الثاني
على القلعة والاتفاقية الانجليزية

تذكر مذكرات روي فيريرا بأن الفرس حاولوا مرة اخرى اقتحام القلعة وتسلقوا جدرانها وكانت نتيجة ذلك العمل قاتلة لألفين من جنود فارس وانتصار كامل مرة اخرى للبرتغال (مع ان المصادر البريطانيه لا تؤكد هذه الوقائع وتكذب مقتل الفين من جنود فارس).

فى صباح اليوم التالي بعد هدوء المعركة رفع العلم الابيض فى موقع مدفعي انجليزى وتقدم جندي انجليزي فى اتجاه القلعة حاملا علما ابيض فخرج له جندي برتغالي لاستلام الرسالة والتى ارسلت الى قائد القلعة: «الى الجنرال السيد دوم روى فيريرا دى اندرادى المحاصر فى القلعة السيد دوم روى فيريرا قائد ارض هرمز ومضايقها وسيد البحر الاحمر.

يا صاحب السعادة لابد انكم تدركون الحالة المتردية التى اصبحت عليها قلعتكم ـ والتى يصعب اصلاحها.

ان اعتقادكم بمواصلة الدفاع املا فى وصول المساعدات (رغم انه عمل شجاع) فانه لن يؤدي الى نتيجة.

ونحن نعلم ان شجاعتكم سوف تؤدى الى حصادكم بواسطة جنود فارس العطاشى لدم البرتغاليين.

وبناء عليه فإننا نطلب منكم الاستسلام وبشروط نمليها عليكم ويتم نقلكم الى هرمز او الى مكان آخر بعد ذلك او الرفض من طرفكم ويعنى ذلك دخول اربعة آلاف جندي فارسي وألف انجليزى وفرض الشروط

بقوة السيف اننا نمهلكم اربعاً وعشرين ساعة فقط. اجتمع روى فيريرا مع قادته وخاطبهم قائلا: «ايها الساده أصحاب الشرف الرفيع ـ لقد مضت تسعة أشهر على هذا الحصار قاومتم فيها العدوان بكل بساله وشجاعة والقيتم الرعب في القلوب وخلدت اسمائكم فى كل بقعة هل يخيفكم الحظ القادم الآن وهل تعتقدون ان هناك فرق بين الامس واليوم، وهل يخاف الموت من يطلب الخلود دع الانجليز فى اوروبا والفرس فى اسيا يرددون اننا متنا موته الابطال ولم نتنازل ولم نكن جبناء قط دعونا نخرج من هذه القلعة وليقرر السيف اين موقعنا فى هذا العالم».. بعدها التقط فيريرا خوذته وترسه وسيفه وتوجه الى بوابه القلعة يتبعه جمع غفير وكانهم فى طريق النصر.

اعترض القساوسة طريق القائد وخاطبوه بأسم السيد المسيح الذي مات من اجل الناس وان الله حرم قتل النفس والتلاعب بالارواح واذا ما اصروا على الخروج فأن الكنيسه سوف تكون بريئة منهم وسوف يموتون موته الكفره ولو بقوا ودافعو عن قلعتهم فأنها الروح الكاثوليكية الشجاعة التى توجههم وليس التصرف الجنوني.

تراجع القائد وجنوده ومع الوضع القائم والحالة الرثة لغالبية سكان القلعة والارهاق والخوف قرر القائد ارسال جواب لرساله الانجليز علماً بأنه اذا كانت الشروط غير مقبولة فأن النهاية سوف تكون قريبة.

الرد البرتغالي

رفض القائد ارسال اى رد الى الانجليز فقرر الجنود اخذ القرار مرغمين على عصيانه فكتبوا الرسالة التالية:

«نحن جنود قلعة قشم نرد على رسالتكم السامية (رغم رفض قائدنا) ونخبركم اذا كنتم تعتقدون اننا فى قلعة لا جدران لها، فأن الجنود البرتغاليين المقيمين فيها لديهم الارادة لإعادة بنائها والدفاع عنها عشرة سنوات اخرى.

ان قراركم بفرض الشروط علينا بقوة السيف غدا يجعلنا نطالبكم بأتخاذه اليوم وبكل ما لديكم من قوة هذا الى جانب انه ما لم تكن شروطكم مقبولة فأننا سوف نستمر فى دفاعنا وحربنا معكم».

حمل هذه الرساله جندى برتغالي عبر الخطوط الفارسية (معرضاً نفسه للأستهزاء والسخرية) ووصل الموقع الانجليزي وثم استقباله على الطريقة الانجليزية بشرب نخب الصحة واللطف ـ ارسلت الاجابة مع حامل الرسالة وطلب منه الاشارة عند كتابة الجواب لكى يتم ارسال جندى انجليزي لأخذه من القلعة.

عاد الجندي البرتغالي وقدم الرسالة الى القائد الذي رفض استلامها وهجم على الجندي يريد قتله وصارخا فى وجهه (ايها الخائن هل تطلب منى تسليم القلعة) ـ وهنا تدخل بقية الجنود وانقذوا زميلهم من الموت.

بعد ان استمع الجميع للجواب الانجليزى رفع القائد رأسه الى السماء قائلا «يا الهى اما هناك من صاعقة تنزل على هؤلاء الخونة للشرف البرتغالي».

ثار الضباط والجنود على قائدهم قائلين «اننا لسنا خونه ولا ضعفاء وقد قمنا بالدفاع عن هذه القلعة بكل شجاعة واقدام وقدمنا ولاءنا للملك اننا على اتم الاستعداد للدفاع مرة اخرى والصمود اذا ما اعطينا قلعة سليمة ومواد لصيانتها اما وقد اصبحنا دون قلعة فأننا نرفض ان نموت كالحيوان المتوحش ومع ذلك فأنك انت قائدنا».

عند سماع ذلك توجه القائد الى مخزن البارود مع نية جادة فى تفجيره فتدخل الجنود مرة اخرى واخذوه بالقوة الى خيمته ووضعوه تحت الحراسة الى ان انتهت مراسم تسليم القلعة. ارسلت الرسالة الجوابية الى الانجليز كالتالي:

«لا نقبل شروطكم ولن نتنازل عن مطالبنا اننا نحن سادة القلعة ولدينا من المؤونة ما يكفينا لعشر سنوات قادمة ومخازن للبارود تكفى لتفجير القلعة والانتحار الجماعي ولذا نقرر نحن شروط الاستلام وكما يلي:-

يجب السماح فى المرتبة الأولى للقساوسة بالانتقال من القلعة على ان يأخذوا معهم كل ما يتعلق بالأمور الدينية بعدها يغادر القائد الى هرمز بكل سلاحه وصولجان القيادة ومعه كل الجنود على ان يحملوا الشعلات فى ايديهم والرصاص في افواهم قارعين الطبل مع كل العلامات والبيارق يرافقهم ضباط الصف حاملين حرابهم ومتاعهم، هذا مع ضمان انتقال العبيد المسيحيين معهم وكذلك جنود هرمز مع كل اسلحتهم ومتاعهم مع توفير السفن والراحة اثناء الانتقال الى هرمز».

بعد الانتهاء من هذا الجواب وافق الجميع على محتواه ورفع العلم الأبيض فتقدم جندى انجليزي لاستلامه من القلعة.

بعد قشم تسقط هرمز

عادت السفن البرتغالية المرسلة الى لفت وقد علم قائدها الماجور جاسبر دى افونسيكا بما حل بقلعة قشم فقرر مهاجمة السفن الانجليزية على ان تتوجه خمس سفن من اسطوله تجاه كل سفينة انجليزية فى حركة انتحارية من اجل انقاذ القلعة. اتخذت السفن البرتغالية التشكيل الهجومي التالي:

سفينة القائد جاسبر دى افونسيكا ومعه اربع سفن اخرى تهاجم سفينة القيادة الانجليزية والقائد سباستيو بيريرا دى ماسيدو ومعه اربع سفن اخرى لمهاجمة سفينة نائب القائد الانجليزي.

عندما شاهدت السفن الانجليزية السفن البرتغالية بدأ القصف المدفعي بين الطرفين فاصابت قذيفة انجليزية القائد جاسبر دى افونسيكا ونثرت اشلاؤه على سطح سفينته. توقفت السفن البرتغالية وغطت مقدمة سفينة القائد بوشاح (اشارة الى موته) فتوجهت السفن كلها الى هرمز.

(يكذب الانجليز هذه الرواية مرة اخرى).

تم تعيين الدوم كونجالو داسلفيرا قائدا للأسطول خلفاً للقائد القتيل وكان هذا القائد مرافقاً لأسطول روى فيريرا من البرتغال وتم تعيينه سابقاً نائباً لقائد اسطوله بعد وفاة دوم ايوا دى الميدا قبل وصوله الى موزمبيق.

كانت هرمز فى حالة من الفوضى وكان قائدها عاجزا عن ارسال أى دعم عسكرى الى قلعة قشم وبقيت قرارات مجلس الدفاع فى هرمز دون تنفيذ.

غضب ملك هرمز من تصرفات قائد هرمز سيماو دوميلو وطالبه فى ان يكون اكثر حزماً وان يتوجه على الفور لمساعدة قلعة قشم وانه هو (اي الملك) سوف يباشر اعمال صيانة وتحصين قلعة هرمز ومدينتها.

رفض قائد هرمز نصائح ملك هرمز فوقف الملك قائلاً: «ايها السادة لقد ضاعت هرمز منذ ان تم تعيين قائد جبان عليها. ايها المقدسين اعتنوا بأموركم فإن الوقت قد جاء بالنسبة لى للدفاع عن ملكي، ولذا فإننى انسحب من مجلسكم واقدم اليك يا ايها المقدس دوميلو قلعة هرمز».

حاول قائد هرمز اعتراض ملكها والرد عليه، فوضع الملك يده على خنجره قائلاً «انه لن يتحدث مع من خان أخاه ملك البرتغال».

وافق الحضور على كل ما قاله ملك هرمز ولم يعارض قائد القلعة ذلك فأرسل أمراً الى كل البرتغاليين بالتوجه الى الاسطول فى الثانية ظهراً وعين الدوم كونجالو داسلفيرا قائدا لهذه الارماده.

توجه القائد الجديد الى سفينة القيادة معلناً الاستعداد للرحيل. وكان القرار اما أن تقع سفن الانجليز فى يد البرتغال او تقع سفن البرتغال فى يد الانجليز.

عندما بلغت الانباء ملك هرمز امتطى فرسه وقرعت طبوله ونادى وزيره وتوجه الجميع الى القلعة للعون المادي والبشري وقابل وكيل الخزانة وقائد هرمز.

انتشر الذعر والخوف فى اهالى مدينة هرمز فنقلوا متاعهم الى القلعة واعتقد الجميع ان النهاية قد حانت ولم يقدم احد العون لملك هرمز واتباعه فى تحصين المدينة وانتهى الامر به ان يقوم هو (الملك) واتباعه من المسلمين فى تحصين المدينة كلها.

تسليم قلعة قشم

وافق الانجليز على الشروط خوفا منهم بتغير الرأى او الاحوال وطلبوا حضور بعض الضباط من القلعة لتوقيع اتفاقية الاستسلام. بعدها توجه الضباط المطلوبون ووقعت الهدنة على ان يتم اخلاء القلعة فى اليوم التالي.

فى صباح اليوم التالي انسحب الفرس الى مسافة اربعمائة خطوة عن جدران القلعة وتقدمت ثلاث مجموعات انجليزية بأعلامها وطبولها تحت قيادة جنرال انجليزي.

فتحت ابواب القلعة وتقدم احد الضباط المفاوضين وناول الجنرال الانجليزي مفاتيح القلعة - فى نفس الوقت استعدت القوات البرتغالية لمغادرة القلعة.

خرج القائد روى فيريرا مرتديا الاسود وحاملا سيفه ولكن دون صولجانه، هنا تقدم القائد الانجليزي قائلا «ان قائدا مثله لن يقلل من شأنه سوء الطالع» وطلب منه مرافقته الى سفينة القيادة الانجليزية. لم يرد القائد على اية استفسارات وتبع الانجليز دون ان ينطق بحرف واحد.

بعدها صادر الانجليز اسلحة البرتغاليين وطلبوا من الهرمزيين البقاء فى القلعة.

بعد مغادرة الانجليز واسراهم البرتغاليين اعطى الانجليز الاشارة للفرس للهجوم على القلعة والفتك (بالهرمزيين) وقامت معركة غير متكافئة بين جيش هرمزي أعزل فى قلعة مهدمة وجيش فارسي مسلح

كبير العدد انتهت بقتل ثلاثمائة من الفرس وكل الثمانمائة من الهرمزيين العزل الذين حاربوا بسيوف الفرس المهاجمين ووقفوا وقفة واحدة املهم فى الحياة هو الحصول على سيوف المهاجمين للدفاع عن النفس بعد ان جردهم الانجليز من سلاحهم وسقط الجميع وبسقوطهم سقطت شروط المعاهدة الانجلو - برتغالية فى قشم وسقطت قلعتها فى يد الانجليز.

سقوط قلعة قشم واستعدادات هرمز

لقد كان ثمن سقوط قلعة قشم ستمائة الف روبية يدفع الفرس نصفها الى ممثل الانجليز فى جسك نقدا والباقي يدفع على هيئة حرير فارسي فى السنة القادمة، ويأتي بعدها الاتفاق الخاص بالهجوم على هرمز والتى اذا ما سقطت فإن الغنائم سوف توزع بالتساوى بين الانجليز والفرس.

وسوف تؤول السفن البرتغالية وكل المدافع والاسلحة الى الانجليز. اما ملك هرمز وامراؤه ووزراؤه فسوف يتم ارسالهم كهدايا الى السلطان الفارسي العظيم.

واذا لم تسقط قلعة هرمز وسلبت المدينة فقط فإن كل فريق يستطيع ابقاء ما حصل عليه منها وفوق كل ذلك يصبح للانجليز الحق الكامل فى التجارة مع كل الموانيء الفارسية دون دفع ضرائب على بضائعهم.

بعد ان بلغت انباء سقوط قلعة قشم قائد قلعة هرمز امتطى حصانه وتوجه الى بيت ملك الجزيرة يرافقه رئيس الخزنة وبعض مساعديه.

ما ان سمع ملك هرمز اصوات طبول قائد قلعة هرمز حتى خرج لاستقباله فى قاعة القصر، وقدم قائد هرمز اعتذاره للملك عن ما بدا منه ونقل اليه اخبار قشم فأخبره الملك بأنه قد فقد ابن عمه هناك القائد الهرمزى معراج الدين (ويقال قطب الدين).

اخبر قائد هرمز الملك بأنه جاء من اجل المشورة والمساعدة وخاصة انه لا يستطيع دعوة مجلس الحرب فى القلعة دون وجود الملك، فأجابه الملك انه مستعد لحضور المجالس التى تأتى بنتائج، اما اذا كان مضيعة للوقت فلا وقت لديه لذلك.



الفونسو البوكيرك 1507م

وان سقوط قشم لم يكن نتيجة تخاذل او خوف قائدها بل كان السبب الرئيسي تجاهل قائد هرمز للخطر الكامن وتقاعسه عن ارسال نجدة لقشم عندما كان الامل معقودا على وصول هذا الدعم لانقاذها.

اجتمع المجلس فى الدور العلوى من قصر الحاكم واثناء انعقاده وصل اندرى كوتينو الذى سبق وان ارسله قائد هرمز الى قشم ولكنه لم يستطع الوصول اليها الا بعد المعاهدة الانجلو ـ برتغالية. خاطب كوتينو المجلس المنعقد قائلا:

أيها السادة لقد سقطت قلعة قشم وان روى فيريرا سجين لدى الانجليز ولقد تمكن بعض الجنود من الهرب وهم فى طريقهم الى هرمز فى ثلاثة طرادات اما الباقون فهم ملازمون للقائد فيريرا وقد احضرت لكم رسالة منه.

«احملوا نيابة عني اخبار واسباب سقوط قشم الى الله وملك البرتغال.

ايها السيد سيماو دوميلو ان قوى الاعداء تتجمع وفى طريقها لمهاجمة هرمز.

ارجو منك ان تقرأ ما كتب على الدرع الموضوع عند قدمى القائد العظيم الفونسو دى البوكيرك والذي يقول فيه (اذا ما رأيت السفن الاوروبية والمعادية والراسية عند هذه القلعة دع المياه تدخل الى الخندق حولها ونم قرير العين) اتبع وصيته فلقد اصبحنا فى ورطة نتيجة عدم الاستماع للنصائح».

(القائد روى فيريرا)

بعد قراءة الرسالة قال القائد دوميلو مخاطباً المجلس «لقد سلم فيريرا قلعة قشم الى الاعداء ولن افعل أنا ذلك فلقد كنت دائما احسن منه».

فأجابه احد الحاضرين «لا اعتقد ان احداً يستطيع ان يذكر روى فيريرا بسوء فهو الذي حارب بسيفه فى اصعب اللحظات وبكل شجاعة ضد الاعداء واكثر من ذلك لا يستطيع من كان السبب فى سقوطه ان ينتقد تصرفاته».

بعد هذا الاجتماع والذي لم يتخذ فيه اى قرار خلد القائد للراحة والنوم بينما بقى الجميع ساهرا طوال الليل فى اصلاح القلعة وتحصين المدينة. فى اليوم التالي توجه قائد القلعة مرة اخرى الى القصر فسأله الملك «هل سنقدم المدينة والقلعة الى الاعداء ام اننا سنقوم بالدفاع عنهما؟ فإذا كان الرأي الاخير هو الجواب فلماذا لم تتم اعمال تنظيف الخندق المحيط بالقلعة وخاصة عند قاعدة برج سانتياجو ولماذا لا تجمع الاخشاب من مخازن الجمارك والمخازن الاخرى والمستشفى؟ ولماذا لم تكتمل اعمال الصيانة التى ابتدأها دوم فرنسيسكو ديسوزا! ولماذا لا يتم تخزين المؤن مثل الارز والنبيذ فى القلعة، والمواد الضرورية والتى تمتلىء بها حوانيت التجار وتكفى لعشر سنوات قادمة.

ولماذا يا اخي لا تمتلىء خزانات مياه الملك بالماء لكى تستفيد منها المدينة كلها، لدينا الكفاية من الرجال لكل ذلك ولتحصين المدينة ومتى سوف نفعل ذلك؟!.

وافق قائد هرمز على كل اوامر الملك وقرر ايضا سحب السفن الى اماكن آمنة قرب القلعة وانزال الجنود منها الى القلعة. ابتسم الملك قائلا

«ان سفن العدو فى طريقها الينا واننا ما لم نرسل اسطولنا لمواجهتهم فاننا سوف نضطر الى حرق سفننا فى مواقعها قرب القلعة، ولذا علينا ارسال اسطولنا فى وجه الانجليز فهي مماثلة فى العدد والحجم والقوة وتعتبر من احسن السفن فى الهند على ان نترك سفينة او اثنتين فى هرمز لمواجهة السفن الفارسية.

واذا ما حاربنا فى البحر فإن هناك املا فى بقاء هرمز. اما اذا دخل العدو الجزيرة فإنها سوف تكون النهاية.

رفض القادة البرتغاليون اقتراحات الملك والذي قرر آنذاك الالتحاق بالقلعة وطلب ان يخصص له ولوزيره واهل بيته مكان خاص فيها. قدم بيت الضيافة الى الملك ورافقه الامير والوزير وعملوا جميعاً فى تحصين القلعة. وسحبت السفن الى منطقة بين برج ساو بيدرو والبحر وتم وضعها فى اوضاع تشبه السفن التجارية.

وليست الارماده البرتغالية التى حاربت فى الشرق ونقلت كنوز الملك الى القلعة وكان يراقب عملية النقل بعيون دامعة قائلا «ايتها القلعة التى شارك اجدادى فى بنائها ولا استطيع الآن ان استقر فيها بسلام فإنها ضائعة بسبب سوء ادارة هذا القائد».

عندها تعثر حصان الملك فسقط على الارض واعتبر ذلك سوء طالع بالنسبة للهرمزيين وكان ان صح التعبير يعني فقدان هرمز.

هجوم الانجليز على هرمز ونزولهم الى البر

ووسط اضطراب اهالي هرمز وسوء ادارة قائد قلعتها وصلت في 23 فبراير 1622 السفن الفارسية والا نجليزية الى المضيق عند نقطة في رأس (كورو).

عندما رأى قائد هرمز ذلك امر دوم كونجالو داسلفيرا ان ينزل الى البر ويستخدم السفن الصغيرة في منع الانجليز من النزول اليه.

شددت الحراسة في القلعة وكان قلق الناس مضاف اليه حسرة على من تركوا خلفهم من العجزة وكبار السن وكل من لا يستطيع حمل السلاح في المدينة.

انتشر في المدينة هدوء الموت تتخلله اصوات الدعاء الى الله ان يحفظ من بقى فيها وينزل العقاب بالذين تركوهم هناك دون حراسة او عون.

في الصباح التالي امتلأت السماء بأشرعة السفن الفارسية ومعها الانجليزية التى كانت السفن الفارسية تقطرها الى اتجاه الساحل مع بقاء مقدمتها الى جهة البحر استعدادا لأي حدث طارئ.

شارك ملك هرمز وستمائة من المسلحين البرتغاليين في عملية الدفاع عن الجزيرة ومحاولة منع الفرس او الانجليز النزول اليها.

في هذه الاثناء شوهدت سفن اخرى منطلقة من اتجاه جامبرون (بندر عباس) قادمة وبسرعة فائقة تجاه الشاطئ في تشكيلة نصف قمرية، فخرجت القوات البرتغالية في سفنها الصغيرة لملاقاة هذا الاسطول القادم واغلقت الدائرة على اسطول هرمز ودارت المعركة بين القوتين انتصر فيها اسطول البرتغال وفر الاسطول الفارسي من المعركة ملتحقا بالاسطولين الفارسي والانجليزي اللذين سبقاه الى هرمز.

اعطيت اشارة الانسحاب من القلعة ولكن لم يعبأ بها دوم كونجالو وتابع الاسطول الفارسي الفار حتى تم ابعاده عن سواحل هرمز.

استدعى قائد القلعة مرة ثانية وثالثة الاسطول المحارب باطلاق مدفعه من برج القلعة وتعجب الذين حوله عن السبب في حين انه يرى ان الغلبة في المعركة لجنوده فرد عليهم قائلا «اخاف من تغير الريح والتى سوف تؤدي الى وصول الانجليز الى اسطولنا وتدميره». فرد عليه بلثيزار دي شافيز قائلا «سيدي الا تعتقد ان لكل سفينة خمسين مجدافاً ومدفعاً وسارية وبها جنود برتغاليون وهل لسفن الانجليز مجاديف أم انها طيور سوف تنقض علينا من السماء؟ اننا سوف نخسر المعركة لأخطائنا وليس بسبب ضعفنا وقوة اعدائنا».

عاد القائد كونجالو باسطوله بعد ثالث طلقة في الساعة الثالثة ظهرا وتوقف عند نقطة (كورو) دون فقدان رجل واحد (يكذب الانجليز هذه الرواية مرة اخرى ويدعون ان 3000 جندي من الفرس نزلوا الى المدينة دون مقاومة تذكر من احد).

ما ان اتيحت الفرصة للانجليز والفرس حتى تقدموا تجاه الجزيرة مرة اخرى وكان في الحقيقة ممكن منعهم من ذلك لو انزلت سفننا الكبيرة ولكن يبدو اننا يتم عقابنا لاخطائنا وعدم اهتمامنا بالامور وانها القدرة الإلهية التى تقرر كل شيء.

في الليل قرر القائد سحب اسطولنا الى الجهة المقابلة لقاعدة برج سانتياجو مما ادى الى خلو الساحل من اي دفاع ونزل الانجليز والفرس اليه دون اية مقاومة.

أثناء محاولة النزول الانجلو ـ فارسيـة فقد ملك هرمز والنبلاء والوزراء الامل في انقاذ المدينة، وحاول قائد الارمـاده منعهم ولكن طلب منه قائد القلعة الانسحاب والعودة اليها وهنا توجه القائد البحري الى قائد القلعة قائلا: «انك لوثت شـرفي واحتـقرت كفـاءتي ولذا انني استـقيل من هذا المنصب واترك لك قيـادة الاسطول»، فاجابـه القائد مهـددا بانه لن يقبل استـقالتـه وسوف يقـدم تقريراً عنه الى ملك البـرتغال. لم يسكـت قائد الاسطول بل رد قائلا انه سوف يكون شاهـدا على فشل قائد هرمز عند لقاء الملك وانه في الوقت الحـالي سوف يعود جنديا فى هرمـز مثل يوم وصوله اليها.

دخول الفرس الى هرمز وسلبها

ساءت امور هرمز المدينة والقلعة وعمت الفوضى فيها وذلك لسوء الادارة والحكومة وتكدس الاهالي وحيواناتهم ومتاعهم في القلعة وبقى الفقراء في شوارع المدينة.

دخل الفرس الى المدينة في مجموعات منظمة خشية مواجهة المقاومة ولكن بعد تأكدهم من عدم وجودها تبعثرت المجموعات في بيوت المدينة واسواقها وازقتها كل ينهب ويحمل ما يقدر على حمله. لقد كانت هرمز اغنى مدينة في الشرق!

غادر الملك قصره من الباب الخلفي ومعه اهل بيته واتباعه والتجأوا مثل الآخرين في القلعة.

تجمعت قوة من البرتغاليين عند مدخل الجسر وكان بلشيزار دي شافيز وديبجو بيريرا دي ماسيدو وهيرونيمو تافارز وفيرنام دي باروس ومانويل كاباكو ودوم كونجالو دي سلفيرا وثلاثمائة من الجنود في انتظار الفرس.

دخل الجنود الفرس الى قصر الملك وكانوا على مقربة من القلعة فخاطب بلشيزار مرافقيه قائلا «اليوم سوف يهب لنا سلاحنا الحياة فدعونا نهاجم الكفرة ونجعلهم يدركون من هم البرتغاليون».

هجم الجنود البرتغاليون على جنود فارس ورغم عدم تناسب العدد 200 الى واحد في البرتغال فقد هرب الفرس تاركين خلفهم جثث قتلاهم فلاحقهم جنود البرتغال حتى السوق ودار الشفقة والقصر.

لقد تم تعيين براس رودريجوس مع خمسين جنديا لحماية منطقة

امين الخزنة والمخازن الرئيسية في الجمارك ـ ولقد اضطر لمواجهة الفرس في الدور العلوي من مبنى المستشفى في نفس المنطقة بعد ان دخلوها باعداد كبيرة فقذف انتونيو منديز رابوزو ببرميل من البارود والقنابل وفجر الجنود الفرس ومعهم بعض الجنود البرتغاليين واصيب بعض من الباقين بحروق شديدة وكان من ضمن الجرحى انتونيو منديز بنفسه.

بعدها التحق الجميع الى القلعة وبقيت النساء في شوارع المدينة تحت رحمة الجنود الاعداء.

تقدمت فتاة هرمزية الى قاعدة برج ساو بيدرو وطلبت ان يفتح لها الباب فأمر قائد القلعة باحضارها الى الداخل وعندما دخلت الى القلعة طلبت من قائدها ان يتم تعميدها لانها تريد ان تموت وهي على الديانة المسيحية واخبرت سكان القلعة بالدعاء والتوبة فالنهاية قد قربت. وبعد تعميدها سقطت ميتة امام الجميع مما زاد الخوف والرعب في قلب سكان القلعة كلها.

سقوط هرمز المدينة

كتب قائد قلعة هرمز رسالة الى حاكم الهند يخبره عن امور مدينة هرمز والوضع في القلعة وكان الرد مهينا حيث اخبره الحاكم بأن هرمز لا تستطيع الاعتماد عليه بل على نفسها وان قائدها كان يأمل ان يكون جارا للاعداء فإنه وحسب اعتقاده (أي اعتقاد حاكم الهند) سوف يأكل الاعداء على سفرة قائد هرمز في مدة اقصاها شهرين وانه ان كان هناك شيء يستطيع القيام به فهو ان يفتح الخندق كما نصحه من قبل وان يحمل بندقيته ويدافع عن القلعة مثل اي جندي فيها.

تقدم الفرس الى محاذاة القلعة وابتدأوا في بناء القواعد للمدفعية مستخدمين المواد الوفيرة في المخازن البرتغالية.

وصلت انباء عن تجمع للقوى الفارسية في جامبرون بقيادة خان شيراز ونية الاخير دخول القلعة ماشيا بعد هدم جدارها عند برج سانتياجو (ففي الموقع الذي كان لابد من فتح الخندق بجانبه لمنع القوات المهاجمة والفعل الذي لم يقم به قائد هرمز).

قام الفرس بتحصين المدينة وبناء المتاريس في شوارعها المواجهة للقلعة وغلق نوافذ المنازل المجاورة وفتح فتحات للبنادق في جدرانها. هذا الى جانب اقامة موقع جيد للمدفعية في ارض الجمارك نصبوا فيه عشرة مدافع عيار 24 ـ 40 رطلاً، واستولوا على المستشفى ودير القديس اوغسطين وعلى جزء من المرفأ طوله واحد وعشرون قدماً اقاموا قاعدة اخرى للمدفعية ونصبوا عليها ثمانية مدافع عيار 24 ـ 40

رطلا بقصد قصف الغلايين التي تحطمت نتيجة ذلك وحصنوا قاعة الجمارك والتى كانت تستخدم للمحاكمات ونصبوا فوقها اثني عشر مدفعا قصفوا بها برج ساوبيدرو ومنزل قائد القلعة، وبنوا جسرا خشبيا بارتفاع ثمانية عشر قدما من الجمارك الى دار الشفقة وكنيسة الرحمة والتي نصبوا عليها ثمانية مدافع قصفوا بها برج اجراس سانتياجو وقاموا بتحصين منزل السيد لويز دي فاغاليس ومنزل جل دوبرادو ـ وسدوا الشارع الكبير المؤدي الى السوق بالاخشاب.

وعلى منزل رئيس الاسطبلات بنوا برجا كبيرا ونصبوا فوقه اقوى مدافعهم وعينوا احسن رجالهم وذلك لقصف برج سانتياجو والذي كان في نيتهم هدمه قبل دخول القلعة.

وتحت القصف المدفعي المتواصل من المواقع المذكورة حفروا الانفاق والخنادق في اتجاه القلعة.

سحبت السفن البرتغالية الى موقع تحت المظلة الخشبية الكبيرة وكان اجدى بنا لو أحرقنا هذه السفن اذ ربما فشل الاعداء في الحصول عليها لذلك صدر قرار حرقها وحرق منزل رئيس الميناء والجمارك والمخازن وفعلا تم ذلك كله بواسطة الجنود البرتغاليين وعساكر هرمز والذين عادوا دون اصابة الى القلعة.

ساد الفساد وعمت الفوضى في القلعة ومات الناس بسبب فساد الاطعمة المخزونة لمدة طويلة في مخازن الملك.

ارسل قائد القلعة رسائل اخرى الى الهند يطلب منهم المساعدة قبل سقوط هرمز ويذكر فيها ان تعداد الموتى من الامراض والجوع اكبر من

قتلى الحرب وان مسئولية مـا يحدث سوف تلقى على اكتاف الحاكم في الهند الذي سـوف يواجه الملك في لشـبونه وسوف يحـاسبـه على عدم مساعدته.

ارسلت هذه الرسـائل عن طريق مسـقط الى ماجـويل دي ليمـا قائد قلعتـها ومنه الى فيرانو دي البـوكيرك وارسلت مع هذه الرسـائل ستة آلاف باتاكاس (عملـة برتغالية) لجلب الادوية لهرمـز واللحوم والدجاج والاغنام مع رصيد مفتوح اذا ما احتاج الى نقود اخرى.

تحطيم الغلايين البرتغالية في هرمز

لقد كان القصف المدفعي شديداً دمر مخازن القديس أغسطين وكان هذا القصف الفارسي يهدد السفن البرتغالية الراسية في الميناء، لذا اجتمع مجلس الحرب وقرر ازالة كل مدافعها واخذها الى القلعة وبعدها تم إغراق هذه السفن.

قام الجنود البرتغاليون بتنفيذ هذه الاوامر وسط روح حزينة وأسف شديد على ضياع هذه السفن العظيمة. ونقلت المدافع من (بوابة الخائن) الخلفية للقلعة.

وتركت السفن الاخرى في مهب الريح وتحت رحمة البحر. عارض بحارة سفينة القيادة ساوبيدرو (السفينة التى جاء فيها روى فيريرا من البرتغال) ان تغرق سفينتهم وبقوا فيها بكامل عتادها.

عندما وجد الانجليز ان السفن البرتغالية تم اغراقها تقدموا بسفنهم الى مسافة طلقة بندقية من حصن القلعة واشتبكوا في معركة استمرت سبعة ايام مع السفينة المذكورة ادت الى اصابات جمة في الطرف الانجليزي وخاصة سفينة القيادة الانجليزية التى اضطر الانجليز الى قطرها بعيدا عن ميدان المعركة بعد نفاد البارود وقذائف المدافع وغادر بحارة ساو بيدرو سفينتهم بعد ان اضرموا النار بها والتى اتت عليها كلها في فترة قصيرة (ينفى الانجليز ذلك قائلين ان سفينة القيادة الانجليزية والسفن الاخرى المرافقة قصفت ساو بيدرو واغرقتها).

عند عودة البحارة الى القلعة هنأهم الجميع ما عدى قائد القلعة الذي كان قد قرر شنقهم لمخالفتهم التعليمات لولا تدخل الجنود والضباط الآخرين.

دخل الملك قاعة الاجتماعات (اول مرة يعود اليها بعد استقالته السابقة) واخبر القائد دوميلو بانه يشك في امكانية انقاذ القلعة، لذا يطلب ست سفن تنقله الى جوا من اجل الحصول على المساعدات لاعادة تعمير هرمز.

لم يوافق قائد هرمز ورد على الملك قائلا انه يرى ان من الاجدى بقاء الملك في هرمز لان وجوده كان عامل تشجيع دائم للجنود ومصدراً للدعم المادي والبشري وانه (اي القائد) يرى ان مغادرة الملك للقلعة والجزيرة الآن أمر لن يلاقي استحسان حاكم الهند ولا سكان الجزيرة.

وافق الملك على ذلك ولكنه طلب نقل وزيره وخزائنه وخزائن تجار هرمز الى جوا لتكون في مأمن من الهجوم المتوقع، فلم يوافق القائد على ذلك.

انتخب قائد القلعة ثلاثمائة من احسن رجاله ووزعهم الى ست مجموعات واعطى القيادة للمجموعات الصغيرة الى سباستيو بيريرا دي ماسيدو، انتونيو مورو دى اوليفيرا دومينجوس بيريز فيرا مانويل كاباكو وانتونيو بالاها والقيادة العامة الى بالثيزار دي شافيز.

القى القائد خطابا حماسيا في هذه المجموعة وطلب منها مهاجمة موقع دار الشفقة (مدفعية الفرس) واخماد مدافعه بالآلات التى اعطاها لهم.

خرجت المجموعات في الحادية عشرة ليلا وتوجهت الى الموقع المطلوب دون اعتراض من الفرس حتى وصلوا الى الموقع. هنا تنبه الفرس والانجليز لهذا الهجوم وقاموا بالدفاع عنه بكل ضراوة وقامت معركة بين جنود البرتغال والمدافعين عن الموقع انتصرت فيها المجموعة البرتغالية واخمدت المدافع.

في الليلة التالية رحل فيليب دي افونسيكا من مسقط واحضر معه ثلاث سفن محملة بالاغنام والذرة والبيض المغطس في الزيت والبرتقال والتمور وكذلك حمل معه رسائل من حاكم الهند الى قائد هرمز وروى فيريرا وذكرت الرسائل توجهات الحاكم وتعهده بارسال المساعدات المطلوبة.

اما بالنسبة لرسالة قائد هرمز فقد طلب منه مواجهة الاسطول الانجليزي في مضيق هرمز بواسطة الغلايين البرتغالية على ان يقيدها بنفسه في ظل عدم وجود قائد بحري لها وان يقوم ملك هرمز بادارة القلعة اثناء غيابه.

وانه اذا ما انتصر الانجليز فإنه يترتب عليه حرق الغلايين والموت معها فان ذلك اعظم للشرف البرتغالي وان تقوم السفن الباقية باكمال المهمة المطلوبة.

شعر قائد هرمز بالاحتقار الموجه اليه وما جاء في الرسالة الموجهة اليه والتى كررت الوصايا السابقة والتوجيهات التى هو نفسه رفض تنفيذها من قبل.

ازداد اكتئاب قائد هرمز عندما علم ان الجيش الفارسي قد وضع اللغم في اساسات حصن سانتياجو والذي اصيب من قبل بطلقات المدفعية الفارسية ولقد تأكدت له الآن حقيقة مطالب ملك هرمز وصدقها والذي طلب منه ارسال الاسطول لملاقاة الانجليز وتنظيف الخندق في وجه الفرس حتى لا يسهل عليهم عبوره الى اساسات القلعة. واصبح الواقع الملموس الآن ان هرمز سوف تسقط بسبب اهماله وليس بسبب قلة الرجال او شجاعتهم.

تلغيم حصن سانتياجو

لقد كانت جدران حصن سانتياجو تمتاز بالمتانة والارتفاع ولم يؤد القصف المدفعي المتواصل الى تدميرها، لذا قرر الفرس والانجليز خوض البحر الى الركب والوصول الى قاعدة هذا الحصن وتلغيمه من جهة البحر.

بعد اعداد اللغم عاد الفرس الى مواقعهم واستمروا في القصف المدفعي وبالبنادق فسببوا خسائر كبيرة في الطرف البرتغالي.

بعد عدة ايام وفي الصباح الباكر سمعت أصوات الطبول والمزامير منبعثة من المواقع الفارسية وشوهدت الاعلام قد رفعت على الخنادق.

اثارت هذه الاحداث ريبة البرتغاليين فطلبوا ملك هرمز فتوجه الى حصن الجرس وشاهد ان الخنادق القريبة من حصن سانتياجو خالية من الاعلام ولا موسيقى تنطلق منها. عندما شاهد الملك ذلك اطلق صيحة هيا على السلاح ولبس حزاماً على لباسه الجلدي وفوق رأسه خوذة يزينها تاج ذهبي مرصع وحمل في يده ترساً حديدياً وفي الاخرى سيفه البتار وخاطب البرتغاليين قائلا: ايتها الاسود التي يقيدها حمل (يقصد قائد القلعة) انه اللغم تحت برج سانتياجو فتراجعوا الى الخلف واستعدوا للمعركة فهذا هو اليوم الذي تنتظره اسلحتكم.

اطاع الجنود اوامر الملك وفعلا وفي الساعة العاشرة فجر اللغم الفارسي ودوى صوته عاليا وارتعدت القلعة وكأنها وقد اصابها الزلزال واهتزت الارض وقذف الانفجار بالاحجار الى مسافات بعيدة تساقط بعضها على الجنود البرتغاليين وتطايرت الاتربة.

لم يفلت الجنود الفرس من الاصابة فلقد تسبب سقوط ذلك الجزء من جدار القلعة في قتل ما يقارب ستمائة منهم واحترقت اعداد اخرى نتيجة للنار الناتجة عن ذلك.

بعد تساقط الجدران طمر جزء من الخندق المحيط للقلعة ولكن لم يتغير الوضع بالنسبة للمدافعين، لذا قرر الفرس زرع لغم آخر في نفس المكان واضطروا (حماية لانفسهم من بنادق البرتغاليين)ان يبنوا نفقا مغطى بالحديد يؤدي الى قاعدة البرج المذكور يعملون من اسفله في قاعدة البرج المذكور.

ازاء هذه التطورات ارسل قائد القلعة بالرسائل الى حاكم لهند يخبره بالحاجة الشديدة الى المساعدات والتى ان لم تصل قبل ابريل فإن القلعة سوف تعتبر منتهية.

ارسلت هذه الرسائل عن طريق مسقط بيد بيروجومي ازفيدو ونسخة منها الى ماجويل دي ليما قائد قلعة مسقط، استمرت الفرس في القصف المدفعي كل يوم من الخامسة صباحا الى التاسعة ومن الثالثة ظهراً حتى السابعة مساء بمعدل ثماني ساعات يوميا من القصف المدفعي.

تهدمت الجدران الواقعة بين برج الجرس وبرج ساوبيدرو ولكن كان قرار الفرس ان يدخلوا الى القلعة عن طريق حصن سانتياجو المهدم.

وفي هجوم مفاجيء تقدم الفرس الى هذا الموقع وقتلوا عددا كبيرا من البرتغاليين وقتل بالمقابل عدد من المهاجمين بقصف مدفعي في مؤخرتهم من حصن ساوبيدرو.

اندفع الجنود من داخل القلعة لاخلاء النقطة التي احتلها الفرس في جدار القلعة وبواسطة القنابل والبنادق (والتى سببت خسائر في الجانب المهاجم بقدر ما سببت الدمار في طرف الفرس) لذا قرر البرتغاليون استخدام السيوف وعلى جثث القتلى من الطرفين دارت المعركة.

انضم دوم كانجالو داسيلفيرا ومعه ماجويل بيريرا بورالهو وفيرنام دي باروس ومعه الآخرون الى المعركة وقذفوا بالقنابل في اتجاه الفرس واستمروا في ذلك حتى ارتفعت جثث القتلى الى مستوى الجدار المهدم وانطلق هو ومن معه بعد ذلك في معركة بالسلاح الابيض ادت الى انسحاب الفرس من الموقع. واشترك قائد هرمز وملكها وبلشيزار دي شافيز في نفس المعركة ومعهم اسماء لابد ان تكون خالدة لموقف اصحابها ذلك اليوم مثل الاخوة بيريرا وفرنسيسكو جونكالفز ولورنيسو الفاريز كومور ودومينجو دي كامارا وانتونيو ليتاو وفرنسيسكو كافاريس وتومادي كاسيرس وايرا دي اندرادي وديجاما ومانويل كاباكو وانتونيو مورو دي اوليفيرا وبراس رودريجوس ووبلشيور لوبو وايوا سوارز وانتونيو ديلجادو وآخرين.

ويقول الانجليز «وضع الفرس في 17 مارس اربعين برميلاً من البارود في جدار زاوية القلعة وفجروا هذا اللغم، بعدها هجموا من الفتحة الناتجة على القلعة ودارت معركة حامية بينهم وبين البرتغاليين استخدم فيها البرتغاليون البنادق والسيوف والسلاسل والرصاص الحارق وفقد إمام قلي خان مائتين من احسن جنوده فاضطر للانسحاب فلقد كانت الفتحة في الجدار كأنها فم جهنم المفتوح».

بداية سقوط هرمز القلعة

في اليوم التالي توجـه ملك هرمز وقائد قلعتهـا وآخرون لبناء الجدار المهدم وازالوا اربعمائة قتيل فارسي وخمسين برتغالياً بعدها استمروا في العمل حتى الثامنة مساء.

حاول الانجليز والفرس منع اعمال الترميم بالقذائف المدفعية وبرصاص البنادق ولكن واصل الجميع العمل معا.

انتهى العمل في الصباح الباكر وانطلقت من نفس الموقع المدفعية البرتغالية مع طلقات المناطق الغير مصابة في القلعة مؤكدة التصميم البرتغالي على مواصلة التحدي للفرس والانجليز!

قرر قائد القلعة ان تقوم قواته بعمل خندق مقابل لذلك الذي يعده الفرس حيث ستكون نتيجة انفجار اللغم الجديد اقل حدة من ذلك الذي سبقه وفعلا بدأ العمل في النفق والذي يبدأ من مدخل منزل رئيس جنود المدفعية.

وصلت سفينة من مسقط واخبر قائدها (بيروجومي ازفيدو) بأن قائد قلعة مسقط ماجويل دي ليما حاول ارسال السفن المحملة بالمؤونة من جوا الى هرمز ولكن وبسبب الحصار البحري في مدخل مضيق هرمز اصبح ذلك مستحيلا الآن.

واصل الفرس عمل النفق تحت اساسات القلعة تحميهم الخنادق والمتاريس المقامة حول منطقة العمل من اي اعتداء برتغالي وتجعل من عوامل نجاح الانفجار القادم شبه مؤكدة هذه المرة. لذا قرر قائد القلعة ارسال مجموعة انتحارية تضع نهاية لهذا العمل الفارسي مبتدأ باعمال الاستطلاع ودراسة امكانية نجاح الخطة.

عهد الى بالثيزار دي شافيز بمهمة الاستطلاع، وبعد دراسة المد والجزر ونسبة ارتفاع منسوب البحر قرر بالثيزار انه من الممكن مهاجمة موقع العمل الفارسي.

شكلت المجموعة المطلوبة تحت قيادة بالثيزار دي شافيز ودوم كونجالو داسلفيرا وماجويل بورالهو وآخرين واختير مائتان من احسن جنود القلعة واشجعهم لمرافقة القادة المذكورين في المهمة وتم تسليح الجميع بالبنادق والقنابل والسيوف والحراب.

وعند حركة الجزر تقرر خروج المجموعة المذكورة من القلعة مع الصباح الباكر مع ارشادات مشددة بالانصياع الى اوامر القادة الثلاثة. رافق عملية تقدم المجموعة استعداد كامل في حصون ساوبيدرو وسانتياجو وحصن الجرس مع ابقاء باب مخزن البارود مفتوحا وتحت الطلب.

كانت الخطة تقضي ببدء القصف المدفعي المتواصل مع بداية خروج المجموعة المذكورة كغطاء امن لها على ان لا يتوقف حتى تعود الى القلعة.

تقدمت القوة الانتحارية الى موقع العمل الفارسي ووصلته عن طريق البحر دون ان يلاحظها احد من الفرس ولكن ما ان تقدمت المجموعة الى مدخل النفق حتى ابتدأت معركة ضارية تدخلت فيها قوات القازلباش التركية للمساعدة والنجدة (قوات القازلباش تنحدر من اصل كردي شيعي وقد استخدمهم الصفويون كقوات خاصة ومتميزة وحرس

خاص للشاه سكنوا كردستان وازيلوا منها بواسطة السلاطين العثمانيين وانزلوا الى آسيا الصغرى ونقلهم نادر شاه الى افغانستان كخط دفاعي وكذلك سكنوا خراسان الدفاع عن حدود فارس ضد هجمات الاتراك او قبائل التركمان).

حاول القازلباش دخول الانفاق والتى سبقهم اليها جنودنا فقابلتهم العوائق الخشبية التى وضعت بواسطة جنود القلعة الى جانب الحراسة القوية من القوات البرتغالية على المداخل والتى عينت لحماية المجموعة التى بالداخل.

قتل ثلاثمائة جندي من الفرس داخل الانفاق ووجد البرتغاليون ان الانفاق كانت واسعة وتصل الى قواعد الحصون البرتغالية وقد حُفرت باتقان وكل ما ينقصها وضع براميل البارود فيها.

عندما فشل القازلباشية في دخول الانفاق توجهوا الى ساحل البحر وبقوا في انتظار عودة البرتغاليين من المهمة ولكن كانت المدفعية البرتغالية والقناصة في انتظارهم فانزلوا عليهم بالقذائف المدفعية وطلقات البنادق وحصدوا الاعداد الكبيرة منهم، رغم ذلك بقى عدد كبير منهم في انتظار جنود القلعة واشتبكوا معهم في معركة رهيبة قتل الكثير من الطرفين.

ارتفع منسوب البحر اثناء العملية الانتحارية ووجد الجنود صعوبة في العودة فتجمعوا عند قاعدة حصن مخزن البارود وارسلت لهم سفينة صغيرة نقلتهم الى القلعة.

تخلفت مجـموعة صغيـرة في الانفاق لكي تكمل العمل فقطعـت طريقها قوات القازلبـاشية وحصدتهـا كلها وكان من ضمن القـتلى بالثيزار دي شافيز ومعه ثمانية آخرون من احسن المقاتلين الذين عرفتهم الهند.

(يذكر الانجليـز ان بالثيزار قـتل في الهجوم على حـصن سانتيـاجو وليس في هذه المعركة وان القائد الذي قتل هو بيروجوم ازفيدو).

انفجار حصن سانتياجو

بعد هذه الخسائر الجمة من الطرفين قرر الفرس عقد هدنة مع البرتغاليين وذلك بموافقة خان شيراز (يدعي الانجليز ان البرتغاليين هم الذين طلبو الهدنة) ورفعت الاعلام البيضاء على المواقع الفارسية والسفن الانجليزية.

اخبر قائد القلعة بذلك فطلب من ملك هرمز ان يدلي برأيه في الامر وقد رفض مرة اخرى ملك هرمز دخول اجتماع مجلس الحرب ولكنه طلب من دومليو ان يحصد اكبر قدر يستطيع عليه من قوات الاعداء لانهم طلبوا الهدنة من اجل اتمام اللغم ووصول امدادات جديدة لهم وان هذه الهدنة المطلوبة ليست في مصلحة البرتغال. وخاصة ان سفن الهند في طريقها الى هرمز ومعها سوف تصل النجدة والمؤونة.

رفض قائد هرمز اقتراحات الملك وارسل جنديا يستلم رسالة خان شيراز والتي حملها الجنود الفرس الى بوابة القلعة.

كانت اقتراحات خان شيراز (في الحقيقة اقتراحات امام قلي خان) مقبولة وقد طلب ارسال اربعة جنود برتغاليين رهائن مقابل اربعة من الفرس حتى يتم الاتفاق على الشروط وافق قائد هرمز على هذا الاقتراح وارسل فرنسيسكو دي برتو وفينسنتي كراسكو وايوا جونكالفز وهيرونيمو تافريس (يذكر الانجليز ان البرتغال ارسلوا اثنين فقط وهم فرنسيسكو بيمنتال وباولو داس نواس)، (وارسل امام قلي خان اثنان من الفرس) وفي الكتاب يذكر ان خان شيراز ارسل اربعة من القاز لباشيه بالمقابل الى القلعة.

فقد ملك هرمز الامل وقال ان قلعة هرمز تعتبر منتهية بعد ماشاهده من تبادل للرهائن وكان تحذيره من باب الخبرة ومعرفته لنوايا الفرس.

وصلت رسالة خان شيراز وكانت تحمل شروط صعبة القصد منها اطالة فترة المحادثات لكي تسمح هذه الفرصة للفرس بالتزود وتقوية مواقعهم وتشغل سكان القلعة في محادثات طويلة وتلهيهم عن حفر النفق المقابل للنفق الفارسي.

كانت المطالب الفارسية كما يلي:

- تعود نصف عائدات جمارك هرمز ومسقط الى الشاه الفارسي.
- ان تؤول جلفار الى السلطة الفارسية.
- ان يقوم ملك هرمز بدفع الضرائب الى شاه فارس مثل ماكان يفعل قبل ان يبني الفونسودي البوكيرك قلعة هرمز.
- ان تقدم لهم تعويضات بمبلغ عشرة لك (500,000 بتاكا) مقابل جزيرة قشم.

تم ابلاغ ملك هرمز بهذه الشروط فاثارت غضبه وطلب منهم ان يعودوا للاستعداد للمعركة - وان يرسلوا الى خان شيراز شروط صعبة بالمقابل. في حالة رفضها تعود الرهائن كل الى طرفه.

اكتشف امام قلي خان لعبة البرتغال فأرسل احد الرهائن ومعه رسالة يقول فيها انه لامانع لديه في عرض الاقتراحات على الشاه.

ولذا يطلب هدنة عشرين يوما للقيام بذلك.

اعتبر قائد القلعة ان الحرب قد انتهت واصبح السلام قريبا ولكن بعد عدة ايام جاء احد جنود المراقبة اليه واخبره بان الفرس لازالوا يعملون

في الخنادق والانفـــاق ـ طلب القــائد مــن الجندي ان يتــأكــد فــي الليلة التالية.. وعندمــا جاء جندي آخر واخبره نفــس الشــيء اهمل الامر تمــامــا ولم يخبر احد.

بلغ الامر الى ملك هرمز فارسل الى قائد القلعة وضـبـاطه واخبرهم عن توقعاته بسقــوط القلعة في مدة ايام قليلة وان حصن سانتـيـاجو سوف يزال عن وجه الارض.

في هذه الاثناء وصل اثنان من جنود فارس الى القلعة يحملان رسـالة من امام قلي خان والذي ذكر فيها ان الشـاه الفارسي وافق على انسـحاب الجنود الفــرس من هرمز وعلى شــروط السلام وســوف يقوم الفــرس بالانســحاب من الجزيرة تماما.

هنا عم الفرح والبــهجة جميع الواقــفين بقرب القائد ماعــدا ملك هرمز الذي قال لأحد الجنود الفرس «اخبــر امام قلي خان بأني افضل منه في مــعرفــة خفــايا الامــور وانه لن يخدعني مــثل مــا خدع هؤلاء الاطفــال (ويقصد البرتغاليين).

طلب القائد من ملك هرمز عدم الانســحاب حتى تكتب الاجابة الى امام قلي خان فاخبره الملك بان يطلب من الفرس العودة في اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي انسحب جنود فارس من موقع الانفاق ومنطقة برج سانتـيـاجو وكــان يوم النيروز بالنســبة للفرس فــانطلقت اصـوات الطبول والآلات الموسيقية من المعسكر الفارسي.

ادرك الملك ما يجرى وقــام بتسليح نفسه باســرع ما يمكن وطلب من مرافقيه الاســتعداد للحرب واتجه في عجاله الى قاعة الاجـتماعات حيث

خرج القائد لملاقاته متسائلا «ماذا يجري ياسيدا» فاجابه الملك قائلا جئت لاجابة صديقك امام قلي خان ارجو منك اخبار اتباعك بالاستعداد للمعركة وفي نفس الوقت ارجو اخلاء حصن سانتياجو تماما لانه سوف يتم تفجيره.

طلب القائد روميلو من الملك عدم القلق والراحة وانه (اي القائد) سوف ينفذ اوامره بعد مدة ثار الملك لهذا التصرف وطلب من القائد تنفيذ اوامرة باسم ملك البرتغال.

نفذ القائد اوامر الملك في حين ابقى الرهائن الفرس تحت الحراسة المشددة.

طلب الملك اخلاء حصن سانتياجو وازالة مدافعه ونصبها على الجدران الجانبية واعدادها بالقذائف الرصاصية حتى تكون اصابتها في الفرس المهاجمين فادحة.

في العاشرة صباحا نفذت كل اوامر الملك ومع الانتهاء منها فجر الفرس برج سانتياجو واهتزت الارض مرة اخرى واختفى حصن سانتياجو من الوجود بعد ان قذف الانفجار بحجارتها في كل اتجاه هجم الفرس من الثغرة الناتجة وتوجه البرتغاليين لمقاومتهم وصدهم ستة مرات وفي كل مرة يزداد عدد المهاجمين.

توجه الملك ووزيره وامراءه الى موقع المعركة ولكن منعه قائد هرمز من ذلك وادرت معركة شديدة عن الفتحة الناتجة عن الانفجار.

قذف الرهائن الفرس والمحتجزين بالقلعة بالنار في مخزن البارود قاصدين تفجيره ولكنها كانت المعجزة التى منعت حدوث اي انفجار

وحارب في هـذه المعركة دوم كـونجالو داسـيلفيـرا وماجويل بـيريرا برالهو سباستيو بيريرا دي ماسـيروا فيرانودي باروس، انتونيو لفياو دييجـو بيريرا دي ما سـيدو، وبراس رودريجـوس بانها ـ بعد المعـركة بنيت سـواتر رملية عـالية في مـوقع الحصن المهـدم وتم عد القـتلى من الفرس والانجليـز وبلغ العدد الكلي 800 قتيل اما البرتغال فقـد كانت خسارتهم خمسة وثمانون قتيل.

تسليم قلعة هرمز

امضى الفرس الليل كله في بناء جسور رملية الى الثغرة الناتجة في جدران القلعة ولذا قرر قائد القلعة مهاجمتهم من طرفي هذه الثغرة فتم تشكيل فرقتين برئاسة دوم كونزالو داسليرا وما جويل بيريرا مع مائة رجل لكل منهما لمهاجمة الفرس، وبالفعل تمكنت الفرقتان من الهجوم وطرد الفرس من الموقع الا ان وصول الامام قلي خان مع الف من جنوده اعادهم الى موقعهم السابق.

ولكن لم يكن حظ الفرس احسن هذه المدة فلقد تم قتل مجموعة كبيرة منهم قام القائد بعمل فتحات في حصن سبريتو سانكتو (او الروح القدس) وكذلك قرب مستودع البارود وتم تثبيت مدافع كبيرة (ذات سعة 40 رطل) وذلك في اتجاه الفتحة التي دخل منها الفرس ومن اجل الدفاع عن القلعة في الوضع الجديد الناتج.

استمر الجدال والصراع والطعان قرب البرج المهدوم الى الرابعة مساء دون الوصول الى نتيجة فطلب القائد من القوة المدافعة العودة الى داخل القلعة وتمت عودتهم تاركين خلفهم فرنسيكو دي برتو وبدرو ازفيدو قتيلين في ميدان المعركة.

امر القائد بالقاء الرهائن الفرس في الزنزانات الارضية وكلف دوم كونزالو بحراسة المنطقة يساعده في ذلك خمسون من الرجال واوكل حراسة مخازن البارود الى ماجويل بيريرا بورالهو.

في شهر ابريل ازداد التوتر لدى الجيش الفارسي خوفا منهم في وصول النجدات القادمة من الهند وخاصة اذا علمنا ان ثلاثون الفا من جنود فارس اصبحوا مشغولين بين امور قشم وهرمز غير القتلى الذين يعدون بالمئات في كل المعارك والموانيء الفارسية.

ابتدأ الفرس في العمل من جديد في حفر الانفاق ومن النفق الرئيس انطلقت ثلاثة انفاق جديدة الاول منها تجاه جدران القلعة والثاني تجاه مخازن البارود اما الثالث فكان تجاه خزان الماء والتابع للملك والذي قامو بأزالة جزء من ارضيته وتسريب الماء المتجمع به الى الخارج.

تقدمت الخنادق الفارسية الى ان وصلت قرب بوابة القلعة ـ ازاء هذا التطور الجديد قرر القائد ارسال فرق انتحارية جديدة تقوم بطرد الفرس من هذه المواقع القريبة وفعلا تقدم الجنود البرتغال الى هذه المواقع واستطاعوا ازاحة الفرس شيئا ما منها، وعقدت هدنة مؤقتة مرة اخرى طلب فيها الفرس السماح لهم بازالة قتلاهم من موقع المعركة.

ومع استمرار المعارك والهجمات الصغيرة تناقص مخزون الماء والزاد في القلعة واصبح كل جندي يحصل يوميا على قليلة كمية من الرز والسمك المملح وقليل من الماء فقط.

ولذا ازدادات حالات الوفيات في القلعة وبلغ المجموع الف واربعمائة حالة نتيجة الجوع والعطش والامراض.

وبعد تردي الحالة الصحية لسكان القلعة تقدم الفرس بشرط جديد يقتضي تسليم القلعة دون قتال والا سوف يقوم خان شيراز.

بتصفية كل من بها وبالقوة.

سمعت طبول الانجليز والفرس ليلا فآثر القائد بالاستعداد وكان هذا الامر في وقت اصبحت القلعة في مستوى رديء من سبل الدفاع لقلة الجنود الاصحاء وزيادة اعداد الجرحى والمرضى ـ قام الجنود كافة بالاعتراف للقساوسة وتقبلوا الصلوات استعداد للمعركة الفاصلة والتى ربما تؤدي الى الموت الجماعي هذه المرة.

خاطب القائد جنوده قائلا: ايها المدافعون عن عقيدة السيد المسيح قبل ان يهاجمنا الفرس، دعونا نتوجه الى خنادقهم ونهاجمهم وهم فيها وليخلد سيف كل منكم اسمه وليبقى اسم البرتغال عاليا في الشرق».

هجم الجنود البرتغال على الفرس وقتلوا منهم من قتلوا واحرقوا الكثير ولكن بقيت المعادلة كما هي وحتى الساعة العاشرة ليلا عندما اعلن التوقف عن المعركة من الطرفين.

اخلاء هرمز من بعض اهاليها

بعد منتصف الليل لاحظ حراس المناوبة الليلية اقتراب سفينة قادمة من طرف بندر عباس (جامبرون) ونزول شاب منها الى الساحل.

وصل راكب السفينة الى بوابة القلعة طالبا الإذن له بالدخول لقدكان هذا القادم هو الدوم مانويل ديسوزا ابن قائد هرمز الراحل دوم فرنسيكسو ديسوزا.

دخل الدوم مانويل الى قاعة الاجتماعات فرحب به الملك وكذلك كل الموجدين اعتراف منهم بمكانة والده وبعد الترحيب سلم رسائل حاكم الهند الى ملك هرمز وقائدها.

ارسل فرناو البوكيرك حاكم الهند رسائله يخبر فيها سكان هرمز بان الحالة العامة في الهند متردية ولذا فانه تأخر في ارسال المصرفات وانه (اي حاكم الهند) لم تكن لديه معلومات عن سقوط قشم ولا حتى عن الحالة الصعبة التي تمر بها قلعة هرمز.

ذكر الدوم مانويل انه قد كان برفقة اسطول يحمل مؤنا وعتادا الى القلعة ولكن وبسبب العاصفة تأخر وصول السفن الكبيرة (عشرون غليونا) وانه قد بات من المتوقع وصولها في اية لحظة. كان الغرض من قدوم الدوم مانويل نقل والدته (ارمله قائد هرمز) واحضار 600 كيس من الارز ومائتان حامله للزبده وثلاثون برميل من البارود وخمسون جنديا.

شكر قائد القلعة الشاب الدوم مانويل واذن له بالمغادرة في الليلة

التالية ـ عند مغادرة الدوم مانويل مكان الاجتماع فتحت رسائل حاكم الهند وكانتا في كلتا الحالتين تعكسان القلق الذي اصاب حاكم الهند وخوفه على مصير مضيق هرمز بسبب الاحداث الجارية.

ابلغ نائب الملك قائد هرمز بأنه قد ارسل سفينتين تحملان الارز والف برميل من البارود وعشرون الف من الاوعية لعمل القنابل هذا اضافة الى مواد حربية اخرى.

تتبع هاتان السفينتان عشرون سفينة اخرى بقيادة قسطنطين ديسا ومعه الف جندي وستمائة كيس من الارز واربعمائة جوال من الذرة ومائتا قنينة نبيذ وعشرون برميل من البارود لكل سفينة الى جانب مؤونة كل جندي وبحار عليها.

ولعدم وصول السفن من البرتغال فان غلايين جوا لم ترسل الى هرمز ولكن اذا ما استدعت الحاجة لوجود نائب الملك فانه سوف يتوجه بكل قواته الى هرمز.

بعد قراءة هذه الرسائل انفعل ملك هرمز وقال مخاطبا سيماو دوميلو «ياايها السيد والقائد! كيف ستواجه الملك وكيف ستقابل ربك لوضاعت هذه القلعة منك وجنودها اسود يدافعون عنها».

والتفت الى الجنود قائلا «انتم الذين فقدتم اوسوف تفقدون ارواحكم دفاعا عن هذه القلعة، وابقيتم شرفكم عاليا رغم ضياع قشم وهرمز انه قائدكم الذي سوف يفقد سمعته وشرفه لسوء ادارته واخطائه تجاهكم».

قرر الحضور اجابة رسائل نائب الملك وارسلت الاجوبة الى مسقط بيد فيليب دي افونسيكا ومعه عشرة جنود على ان يقوم بتسليمها الى كوستنتينو ديسا وما جويل دي ليما..

طلب دوم مانويل ويسوزا الاذن لمغادرة القلعة مع والدته وقبل مغادرته توجه الى الملك والذي تحدث معـه لمدة طويلة ثم اعطاءه عقد ذهبي مزين بالماسة كبيرة ورسالتين احداها لنائب املك في الهند الثانية الى الاسقف واخـبره ا نه لا يطلب المساعـدة ولكن يعـهد اليـهم برعـاية ولي عهـده واعـتبـاره خلفـا له على اريكه حـكم هرمز وانه اي المـلك يرسل ابنه مع الدوم مانويل احـتراما للعـلاقة القديمة التى تربطه بوالده (قـائد هرمز السابق) وان تكون رحلة الامير غير معلن عنهـا وان يعتبر متاعه المنقول في اربعـة صناديق كبـيرة متـاع خاص به (اي خـاص بأبن قائد هـرمز السابق) وفي نهاية الحديث اعطاه خاتما مرصعا وقال له «خذ هذا الخاتم ذكـرى لصـداقـتي مع والدك وتعـال اودعك حـيث اننا لن نرى بعـضنا البعض مرة اخرى».

بعد نقل الامتعة ووالده مانويل والكثير من النساء والضباط الجرحى والـخدم ذهب مانويل الى قـائد القلعة يخبره باستعـداده للرحيل فأعطاه الاخـيـر رسائل الى حاكـم الهند وطلب منه نقل صـورة مـفـصلة عن ماشاهده في هرمز الى نائب الملك في جوا.

ابحر على نفس السفينة ولي عهد هرمز متخفيا.

نقلت هذه السـفينة الجـواهر واللآلىء والحلي الخـاصة بملك هرمـز وتـجارها وكانت تقدر هذه الثروة المـنقولة باربعة ملايين (كرروزادوس اتجهت السـفينة بمحـاذاة الساحل الفارسي الى الهـند ودخلت الى جوا بعد عدة ايام.

استلم نائب الملك الرسائل المرسلة وازداد قلقه حـيث ان الشتاء القادم في الطريق سوف يعيق ارسال اية نجدة الى القلعة المحاصرة في هرمز.

سقوط قلعة هرمز

لقد وصل مخزون الماء في القلعة المحاصرة الى العدم وفي نفس الوقت جاء الصيف ومعه الحر والعطش والامراض. وكان الامل في وصول المؤونة والنجدة من الهنديتردى كل يوم، مع ازدياد الرغبة في البقاء بين الجرحى واصرار الاصحاء على المقاومة حتى النهاية ـ

وبينما استمر القصف المدفعي بين الطرفين ارتفع علم ابيض على احد الخنادق القريبة من القلعة وكان ذلك اشارة لوقف القصف ـ وما ان توقف خرج رجل انجليزي من الخندق المقابل لبرج الجرس وطلب ارسال برتغالي يستطيع ان ينقل اليه (اي الى البرتغالي) اخبار هامة.

ارسل القائد الجندي فرنسيسكو كاردوسو بيسوا (وكان يعتمد عليه كل الاعتماد) رغم نفور الناس منه.

خرج فرنسيسكو من القلعة لمقابلة الانجليزي والذي اخبره بانه نائب قائد الاسطول الانجليزي (يكذب الانجليز هذه المقولة ويقولون ان البرتغال هم الذين طلبوا ايقاف النار والمفاوضات).

اخبر القائد الانجليزي البرتغال بانه لديه المعلومات التامة عن الحالة السيئة والمتردية لقلعة هرمز وانه في نفس الوقت يذكر بانه لا رغبة للفرس في مهاجمة القلعة حيث انهم يدركون تماما بان العطش والمجاعة والامراض الى جانب الالغام الفارسية سوف تؤدي الى سقوطها.

«لقد اصبح الامر متروك لقائد القلعة في ان يقرر تسليمها الى الانجليز بشروط معقولة تنقذ النساء والاطفال من بطش الفرس وانه

(اي القائد الانجليزي) الكاثوليكي المذهب والذي ينحدر من خليط برتغالي انجليزي مستعد للقيام بالترجمة بين الطرفين».

رفض ملك هرمز والفيادرو دي فازندا (كبير الخزنة) ومانويل بوجري ديسوزا وكثير من الجنود عرض الانجليز واثاروا انتباه القائد الى ما حدث في جزيرة قشم من الخداع الفارسي والتى ادت الى تفجير اللغم في قاعدة القلعة.

ارسل فرنسيسكو كاردوس مرة اخرى الى معسكر الفرس والانجليز بتوجيهات تقتضي فتح باب المفاضات بين الانجليز والبرتغاليين المعتقلين في حوزتهم على ان يرضخ سكان القلعة للاتفاق الذي يتوصل اليه الطرفين.

وبعد مناقشة الامور في معسكر العدو وضعت الشروط الاتية كأساس للمفاوضات.

اولا: يسمح لملك هرمز والامراء والوزير وكل من معهم بالمغادرة في كامل عدتهم على ان يحملوا معهم اقصى ما يمكن حمله.

ثانيا: ان تغادر النسوة البيض القلعة محجبات مع تحريم ملامستهن او تفتيش اية واحدة منهن ـ ويغادر الاطفال القلعة برفقة النساء.

ثالثا: ينسحب الفرس من مواقع الحصار الى مدينة هرمز وتترك المواقع فارغة.

رابعا: ان يقوم الجنود الانجليز بتنظيم عملية الانتقال في القلعة الى خارجها.

خامسا: السماح لقائد القلعة بالمغادرة برفقة خدمة من نساء ورجال وبكامل سلاحه وستة صناديق خاص به دون اي اعتراض او تفتيش من احد. على ان يتم انتقاله الى مسقط او حيث يشاء.

سادسا: يغادر الجنود البرتغاليين القلعة بكامل سلاحهم ومتاعهم.

سابعا: يغادر الباقيين من سكان القلعة سكناهم ويحملون معهم كل متعلقاتهم.ثامنا: يتم نقل الجميع الى مسقط.

بعد وصول هذه الشروط الى القلعة، انقسم سكانها الى فريقين فريق يطالب بالموافقة متخذا من نقص الماء والمؤونة والامراض اعذار لذلك. وآخر بقيادة الضباط من امثال دوم كوجالو دي سلفيرا، وماجويل بيريرا ومانويل بورجس ديسوزا والفيادور دي فازندرا يطالب بعدم التسليم وشرب دماء الفرس والانجليز بدل من الماء وعدم تسليم القلعة او تشويه سمعة البرتغال في العالم.

عاد فرنسيسكو كاردوسوا الى معسكر الانجليز ومعه الموافقة على الشروط وبقى في ذلك المعسكر يومين عاد بعدهما الى القلعة برسالة تقول انه سوف يتم الاتفاق مع خان شيراز لاستسلام القلعة.

ومع الوصول الى هذا الحد من المفاوضات كان المطلوب ان يأتى ذلك الجندي المجهول ويضرب بعنف على قبر الفونسو البوكيرك العظيم مخاطبا اياه وقائلا «انهض انهض فلقد اضاعوا كل ما حققته من مجد وفخار للبرتغال».

انتقال البرتغاليين الى مسقط

انسحب الاعداء الى الجزيرة (الداخل او المدينة) وتركوا منطقة القلعة خالية تماما ـ استطاع قائد القلعة فتح بوابتها الكبيرة وازيلت المتاريس في التاسعة صباحا شوهد خان شيراز (اعتقد امام قلي خان) ومعه جنرال انجليزي ونائب قائد البحرية واربعة مجموعات انجليزية من حملة البنادق الى جانب الضباط الفرس والنبلاء.

دخل الجميع الى ميدان التدريب في القلعة واستقبلهم القائد دوميلو ومن بقى من ضباطه واعضاء مجلسه.

سلم قائد القلعة مفاتيحها الى الجنرال الانجليزي والذي بدوره قام بتقديمها الى خان شيراز بكل احترام وادب.

وعلى سجادة فارسية في فناء القلعة عقد اول اجتماع رباعي حضره الطرف الرابع ملك هرمز متأخر، مع وزيرة بعد ذلك والذي ما ان شاهده خان شيراز حتى اتجه اليه واخذه بيده مبجلا الى مخدة مخملية جلبت من اجله الى مكان الاجتماع وبعد فترة من الاحاديث العامة ابلغ خان وشيراز قائد القلعة بان يكون جنوده على استعداد للرحيل في اليوم التالي واعتبار ملك هرمز ووزيره والنبلاء ضيوف لديه الى حين يأتي موعد رحيلهم طلب الجنرال الانجليزي بان تعهد له رعاية البرتغاليين حيث انهم من الاوروبيين وتجمعهم الديانة الواحدة.

وتلفت هنا خان شيراز الى ملك هرمز وعرض عليه شرف ضيافته في خيمته.

في اليوم التالي ابتدأت عملية الرحيل وابتدأ في الصباح الباكر الجنود والنســاء والاطفــال في مغــادرة القلعــة وسط جــو من الكآبة والحــزن وعيون دامعة وذهول لضياع كل شيء.

في هذا اليوم انتقل الجميع دون اي تدخل من الجنود الفرس.

ولكن سرت شائعة تقول ان البــرتغال ينقلون اللؤلؤ والجواهر معهم من القلعة، وعندها قرر خان شيراز تفتيش كل المغادرين وخاصة النساء اللواتي تعرضن لمعاملات جافة.

لم يبقهم فــي القلعه سوى قائدها والبقــية من الضباط فــأرسال خان شيراز الى القائد بخبره بوجود سفينة خاصة لنقله متى اراد ذلك.

عند بلوغ هذا الخبر توجــه سيماو دوميلو وضباطه وكل امــتعتهم الى مسقط ـ وتركت القعلة للفرس.

بعــدها دخل خان شــيراز والجنرال الانجلــيزي الى القلعــة منتصــرا يرافقه الكتــبة الفرس والانجليز واللذين قــاموا باحصاء كل محــتوياتها وتدوينها في دفــاتر خاصة ويقال ان الموجــود انذاك بلغ سبعون مــدفعا في القلعة وتم تجــهيزها لألف من الجنود الفرس تحت قــيادة قائد تركي وقرر خــان شيــراز التوجــه الى بلاط الشاه في اصــفهان حــاملا مــعه اربعمائة مدفع سلبت من الغلايين والسفن البــرتغالية وعدد من الصقور وكل ما تمت مصادرته من القلعة.

طلب ملك هرمــز من خان شيــراز ان يسمح له بمغــادرة الجزيرة مع وزيره وكان رد الخــان بأن الملك مطلوب لمقابلة الشاه في اصفــهان ولذا فانه (اي الخان) لا يستطيع مخالفة اوامر البلاط.

انتقل موكب خان شيراز من هرمـز الي اليابسة ومنها الي لار حيث قتل وزير الملك خوفا من ان يقوم هذا الوزير بأبلاغ الشاه عن ما سلبه الخان لنفسه.

تمنى الملك الموت والذي ربما يضع نهاية لعذابه وحزنه ـ وصل الخان الى شـيراز ومـعه ملك هرمـز (بعد مـقتل وزيره الرئيس مـراد) وتلقى الخان امرا بان الشاه لا يرغب في مقابلة الملك ويقرر حبسه في قفص من الحديد يقذف له فيه بالحسنات من الناس المارة به ـ وفعلا تم ذلك ولعدة سنوات الى ان استطاع خـان شيراز الحصول على العـفو عنه ونقله الى منزل في شيراز وبستان صغير وتقديم مصروف يومي (تومان واحدا) لملك هرمز (الشاه محمد) وكان اخر ملك لهرمز قبل سقوطها.

عودة الى روي فيريرا

كمـا ذكرنا سـابقا نقل روى فـيريرا على ظـهر سفـينة نائب القـيادة الانجليزية الى سورات على ان يتم نقله الى انجلترا سجينا بعد ذلك.

وعندمـا وصلت السفـينة الانجليزية الى سـورات وجدت ان السـفن المتوجـهة الى انجلترا قـد غادرت سورات برفـقة السفن الـهولندية بقت السفينة في سورات لاجراء بعض الاصلاحـات الناتجة عن معركة قشم وكـان قائدها قـد ارتبط بنوع ما مـن التفـاهم مع فيـريرا وشاركـه في احاديث طويلة وفي مواضيع مختلفة ولكن مع ذلك كان قد طلب مراقبته بكل حرص وحذر خوفا من ان يتـمكن من الهرب ويتجه الى جوا ـ ومع بقائه في سورات استمرت الفترة الى ما قبل عيد الفصح وقد انتهز روي فيريرا هذه المناسبة لدعوة القائد الانجليـزي ومرافقيه الى وليمة بشرط ان يسمـحوا له يدعوه الضـباط الاخرين اليـها وأن يسمح لخـدم القائد الانجليزي بالتـوجه الى (دامو) لجلب النبـيذ البرتغـالي وزيت الزيتون والحلويات البـرتغاليـة من هناك وخاصة ان الـوليمة سـوف تكون على النمط البرتغـالي وافق القائد الانجليـزى على طلب فيريرا واخـبره بانه يؤرقه عدم استطاعته اطلاق سراحه والذي يتمناه شخصيا ولكن سوف يوافق على جميع مطالبه.

كتب روى فيريرا الى قائد مدينة وقلعـة دامو وتاجر اخر يطلب منهما ارسـال الاطبـاق اللازمـة وزيت الزيتـون والحلويات لما يـكفي سـتين شخصا وطلب من خادمه الخـاص (مولاتو) ويعنى مولاه بان يحضر له نبيذ مخلوط بكيمة كبيرة من عشبة (الداتوره) او (الدوترو) والتى تكثر

في الهند وتسبب اذا ما اكلت غيبوبة قد تستمر اربعة وعشرون ساعة.

عاد الخادم المخلص ومعه كل ما طلب سيده وخاصة النبيذ المخلوط مع الداتوره وترك برميل اخر في وسط السفينة. بعد تناول الغذاء شرب الضيوف كميات كبيرة من النبيذ ادت الى فقدان الجميع الوعي قبل المساء.

قام الخدم البرتغاليين بربط الجميع بالحبال ماعدا طباخ السفينة الانجليزي الذي تربطه علاقة وفاء مع ردي فيريرا ـ وعندما سنحت الفرصة قفز فيريرا ومرافقيه الى سفينه صغيرة وابتدأ في التجديف متجها الى دامو.

لاحظت بعض السفن المتوقفة في الميناء عملية الهرب واطلقت مدافعها محذرة ورفعت مراسيها للحاق بالهاربين.

عندما لاحظ فيريرا ذلك قفز الى الماء وابتدأ في السباحة الى الشاطىء ومنه عن طريق اليابسة متجها الى دامو.

عندما افاق الانجليز طلبوا من حاكم سورات المحلى ان يترك مائتان من الخيالة في اثر روي فيريرا واعلنوا عن جوائز كبيرة لمن يقبض عليه.

ولكونه مسيحيا يحبه الله وصل الى دامو في العاشرة صباحا وقدمت له مدينة دامو اربعة الاف كروزادوس لمساعدته طلب فيريرا من اهالي دامو عدم الاحتفال بوصوله وانتقل عى الفور الى قلعة باسيم (يذكر الانجليز ان فيريرا وخادمة الافريقي واثنان من البرتغالي تمكنوا الهرب ليلا الى ساحل سورات وعبروا النهر حيث غرق احد البرتغاليين وواصل الاخر (القائد جو كاردوسو الميدا) مع فيريرا والخادم الى منطقة (دفان).

بعد وصوله الى باسيم اشترى سفينة كبيرة (غليون) ونصب عليها مدافعه والحق بها خمسون جنديا برتغاليا.

عندما غادر فيريرا قشم كان يدرك ان الخطر اصبح يهدد هرمز وانه يتطلب منه الان التوجه فورا الى ذلك المضيق وفي الطريق الى هرمز التقى بالقراصنة البرتغاليين في سفنهم المسماه (صناديق الفلفل) حيث كانوا يقومون بتهريب الفلفل والبضائع الاخرى مع فارس ـ عاهد فيريرا هؤلاء القراصنة عفوا ملكيا اذا ما رافقوه في رحلته الى هرمز.

بعد عدة ايام وصلت السفن الثلاثة الى مسقط وخرج الجميع من ضباط ورجال دين وجنود لمقابلة فيريرا ورفاقه على الشاطىء واعلنت اجراس الكنيسة عن وصوله.

انتقل موكب فيريرا الى كنيسة السيدة العذراء ومنها انتقل لسكن في مبنى القديس او غسطين.

بعد عدة ايام وصل قسطنطين ديسا نورونها ومعه ست عشرة سفينة كبيرة تحمل المعونة الى هرمز وبقى في مسقط في انتظار السفن الاربعة الاخرى والتى ربما انفصلت عنه. وما هي إلا ايام حتى وصلت سفن اللاجئين من هرمز تحمل معها الاخبار والمآسي والخسارة الكبرى بعد سقوط هرمز.

لقد كان واضحا بان السفن القادمة من جوا لن تنفع في استرجاع هرمز لذا اجتمع قائدها مع روى فيريرا وقرر نقل القيادة الى القائد الفونسو دوميلو (قائد مسقط المعين) وقرر الاثنان العودة الى جوا.

كان الغرض من عودة فيريرا الى جوا شرح موقفه امام الحاكم ونفى

التهم التى الصقها به اعدائه وخاصة بعد سقوط قشم وكان هناك قرار اخر اتخذه بعد كل المعاناة وهو ان يلتحق بالكنيسة راهبا فيها.

طلب فيريرا من القراصنة المرافقين له التوجه الى حيث يريرون وتوجه هو ومرافقوه الى جوا.

اما قائد هرمز ومرافقوه فقد اتجهوا الى الاراضي الهندية خوفا من عقاب الملك.

عودة فيريرا الى الخليج العربي

وصل روى فيريرا الى جوا ولم يلاق اي استقبال من قبل سكانها فتوجه هو ومرافقوه الى دير القديس اوغسطين حيث قام بزيارته بعض من اصدقائه واهمله تماما الحاكم فيرانو دي البوكيرك.

ابتدأ فيريرا في الاعداد للمرافعة التى سوف تعقد في المحكمة الخاصة بالتحقيق في سقوط قشم وهرمز وقد عين القاضي كونسالو بنتو دي افونسيكا للنظر في القضية بمرتبة الوزير الاول ـ ومعه الدكتور انتونيو برتو داسيلفا بمرتبة المدعي العام لدولة الهند.

جرت المحاكمة كما هو مخطط لها واستمع القضاة الى الشهود وسجلت اقوالهم واستمع الى شهود الدفاع واخذت شهادتهم في الاعتبار ولكن لم تصدر المحكمة حكمها في عهد فيرانو البوكيرك. وبوصول نائب الملك الدوم فرنسيسكو ديجاما (والمعين خلفا للبوكيرك) قام بارسال فيريرا الى مسقط دون اعطاء اي اعتبار للمحكمة واحكامها المعلقة.

كان امتناع البوكيرك عن اصدار الحكم ناتجا عن رفضه السابق لعملية انشاء قلعة في قشم وتوقعه بالهزيمة والخسارة للبعثة كلها.

اما الحاكم الجديد فانه كان يرى في فيريرا قائدا يحتاجه الوجود البرتغالي في الخليج وانه من الناحية القانونية قد نفذ الاوامر الملكية المتعلقة ببناء القلعة المذكورة.

ومع ذلك كان فيريرا قد اتخذ في قرارة نفسه الالتحاق بسلك الرهبنة ودخول دير القديس اوغسطين الذي كان يقيم فيه طوال فترة حكم فيرانو البوكيرك.

بعد تعيين الحاكم الجديد زار فيريرا في سكناه وقام باقناعه على ترك الرهينة والتوجه الى مضيق هرمز لخدمة الوطن والملك، على ان يقوم بتدمير السفن الفارسية هناك ويشن حربا لاهوادة فيها ضدهم ويثير الرعب في موانئهم ويدمر قلاعهم ويهدد تجارتهم الخارجية.

(جنرال البحر الاحمر ومضيق هرمز) منح الحاكم فيريرا هذا اللقب اعترافا منه بدوره السابق واستعداده للعودة الى الخليج مرة اخرى وجهز له ست سفن كبيرة تحمل اقوى المدافع على ان تلتحق بها العشرون سفينة الراسية في مسقط وبهذا العمل ولدت الارمادة البرتغالية مرة اخرى بقيادة (جنرال البحر الاحمر ومضيق هرمز).

في نهاية ابريل 1623 عاد فيريرا الى مسقط ليدافع عن اسمه وعن شرف البرتغال مرة اخرى ـ واستقبله سكانها مرة اخرى بكل حفاوة ومع وصوله هذا سادت الطمأنينة في قلوبهم وانتهى الخوف الدائم من هجوم فارسي متوقع على كل القلاع البرتغالية في الخليج.

ادى وصول فيريرا الى مسقط وانتشار خبر اسطوله الى قيام الفرس باخلاء ميناء صحار وبعض القلاع الصغيرة القريبة من مسقط وتركيز كل قواهم وسفنهم في خورفكان، ودبا، وليما، وقصاب ورمس وراس الخيمة مع ترك حامية قوية في قلعة صحار.

قرر فيريرا التوجه الى صحار واخراج الفرس منها فقام باعداد عشرين سفينة برتغالية كبيرة وعشر سفن اخرى تم تسليحها بستة مدافع واستأجر سفناً اخرى ثم تحميلها بالمواد اللازمة للحرب واتجه من مسقط الى صحار.

استرجاع قلعة صحار وحروب الجزيرة العربية

عندما اكتملت الاستعدادات للارماده البرتغالية في مسقط وصعد الف من الجنود البرتغاليين السفن المذكورة، اطلق القائد روى فيريرا طلقة واحدة من مدفعه ايذانا بالرحيل الى صحار والتى تبعد ثلاثين فرسخا عن مسقط.

عندما وصلت سفن الاسطول الحربي البرتغالي الى صحار بعث قائدها جنديا في سفينة صغيرة ترفع العلم الابيض الى قائد قلعة صحار الفارسي يطلب منه اخلاء القلعة بالحسنى ويعده بالمعاملة الطيبة وخاصة ان القلعة لا تمت الى الفرس بأية صلة ولم يحصلوا عليها من البرتغاليين في معركة متكافئة واذا ما رفض الفارسي هذا الطلب سوف تعمل السيوف في رقاب حامية القلعة بعد اربع وعشرين ساعة.

رفض قائد القلعة طلب روي فيريرا وارسل جوابه قائلا «انه ليس هناك داع للانتظار اربعاً وعشرين ساعة فان الفين من جنود الفرس ينتظرون قدومه».

اجتمع مجلس الحرب على ظهر سفينة القائد والذي اكد لهم اهمية الاستيلاء على صحار كخطوة اولى من اجل استرجاع هرمز ومهاجمة السواحل الفارسية والعربية مستقبلا. وناقش الحضور خطة اقتحام القلعة ذات الاسوار العالية والحصون الستة الشاهقة وتوصلوا الى ان احسن وسيلة لذلك سوف تكون باستخدام المدفعية.

تقرر نقل المدافع الى المسجد القريب من شاطيء البحر والقريب من القلعة ونقل البعض الآخر الى بناية السوق القريب (والذي تم بناؤه

بواسطة ايو ديسوزا بانيل) ـ هذا الى جانب الحصار البحري للقلعة بواسطة السفن الحربية.

وفي الصباح الباكر تقدمت السفن الى واجهة القلعة البحرية وانزل الجنود تحت غطاء القصف المدفعي، قاوم الاهالي عملية الانزال البرتغالي وقتل القائد انتونيو دي افونسيكا سريافا وثمانية من جنوده وفر المدافعون الى القلعة.

ارسلت مجموعة مكونة من خمسين جندياً تحت قيادة ايو ديسوزا بانيل (والذي كان آخر قائد لقلعة صحار) الى جهة المنازل القريبة من القلعة وتم توزيع القادة الآخرين في عدة مناطق اخرى، بعدها انزلت المدافع ذات عيار 24 رطلاً وتم توزيعها حسب الخطة المرسومة سابقا.

ابتدأ القصف المدفعي من جهة البحر والبر وادى الى اصابة جدران القلعة باصابات بليغة.

بعد عدة ايام من القصف ارتفع صراخ النساء العربيات في القلعة وطلبن من ازواجهن الاستسلام.

استجاب سكان القلعة لطلبات النساء ورفعت الاعلام البيضاء على القلعة ورفعت القوات البرتغالية اعلاماً مماثلة بالمقابل.

ارسل العرب والفرس الى روي فيريرا طالبين السماح لهم بمغادرة القلعة مع نسائهم ومنقولاتهم فأرسل لهم ردا يقول فيه اذا غادروها اليوم سلمت ارواحهم واذا انتظروا حتى الغد قطعت رقابهم جميعا.

وبناء عليه غادر سكان القلعة الى صحار الداخل ودخلتها القوات البرتغالية منتصرة.

اعاد فيريرا ترميم القلعة، وارسل كتابا الى محمود مظفر ملك تلك المناطق معاتبا له على ولائه للفرس في حين انه يعلم انهم اعداء لملك هرمز وللتاج البرتغالي.

اضطر محمود مظفر الى عقد معاهدة صداقة مع القائد البرتغالي الذي غادر صحار متجهاً الى خورفكان بعد ان ترك في قلعتها قوة برتغالية يبلغ عددها مائة يساعدهم في ذلك جنود محليون يبلغ تعدادهم مائتين وزودت القلعة بالمدافع المطلوبة. وصل القائد الى خورفكان بعد خمسة ايام ولاقى استقبالاً عظيماً من قائد قلعتها (قريب لعلي كمال القائد الهرمزي) واهل خروفكان.

زار قائد القلعة القائد روي فيريرا على ظهر سفينته وقدم له مفاتيح قلعته وقبلها القائد فيريرا حسب الاصول المتبعة ونزل من سفينته الى البر حيث استقبله الاهالي بالاغاني والرقص والولائم ـ بعدها توجه الى القلعة ومعه مائتان من جنوده.

اقام فيريرا في خورفكان عدة ايام وانشأ فيها دائرة للجمارك وعين وكيلاً وكاتباً فيها، واجتمع مع الاهالي وطلب منهم اظهار الولاء لقائدهم والاستعداد للدفاع عن انفسهم اذا ما هاجمهم الفرس والبقاء على ولائهم لملك هرمز السجين في اصفهان والاعتراف بابنه (موفق مير الله شاه) المتوج في جوا بواسطة نائب الملك ملكا على هرمز والمتواجد حاليا في مسقط، واختتم فيريرا حديثه الى رجال خورفكان (اربعمائة رجل) بانه سوف ينزل بهم اشد عقاب اذا ما خالفوا تعهدهم له.

تعهد العرب في خورفكان بالبقاء على ولائهم وطلبوا من فيريرا ان

يقدر ظروفهم التى ادت الى موالاتهم للفرس حيث انهم وجدوا ان هرمز بكل جبروتها وقوتها سقطت في ايدي الفرس فما حالهم لو هم قاوموا هذه القوة الفارسية؟

واضافوا ان يحقق لهم رغبتهم في ابقاء قائدهم حيث انه رجل يستطيع الاعتماد عليه وانه اي (قائد خورفكان) يعترف بالبرتغال.

وافق فيريرا على طلبات العرب وعيهن قائد قلعتها رئيسا عليهم بعد تقديمه قسم الولاء للتاج البرتغالي وتقديم كل اللوازم لاربعمائة من جنود البرتغال وجمع الضرائب من دائرة الجمارك لمصلحة التاج البرتغالي.

توجه فيريرا من خورفكان الى (دبا) حيث يتحصن ثمانمائة من الفرس في قلعتها وقبل وصوله الى هناك بلغته انباء مفادها ان العرب في دبا قد هجموا على الحامية الفارسية وقتلوا الكثير من جنود الفرس فيها لما لاقوه على ايديهم من اضطهاد وسوء معاملة.

وصل القائد فيريرا الى دبا وسط استقبال جماهيري عربي وفرحة عامة حتى ان الرجال فرشوا له الطريق بعباءاتهم (البشت) اكراما له.

اختلف العرب بينهم على رئاسة دبا فقام فيريرا بتعيين قائد برتغالي يساعده خمسون من الجنود في ادارة قلعتها وعين شيخ دبا وكيلا على جماركها على ان يجمع الضرائب لمصلحة ملك هرمز هذه المرة.

بعد استتباب الامن والسلام في الساحل العربي وضمان الولاء لملك هرمز غادر فيريرا هذه السواحل الى مسقط حيث بقى فيها فترة الشتاء لصعوبة الملاحة في الخليج فيها.

الحروب على السواحل العربية

«الآن ينزل بنا عقاب السماء، فإن روي فيريرا في مسقط ولن يبقى للفرس مسكن او اطفال او نساء او حتى ممتلكات، كل ما سوف يبقى هو ما يقرر فيريرا تركه لنا».

هكذا استقبل سكان السواحل العربية من الفرس وكان صدى هذا القول يتردد مرة اخرى على السواحل الفارسية القريبة من هرمز لقد كان سقوط صحار موازياً لسقوط هرمز وسقوط دبا لسقوط قشم وابتدأت المواجهة من جديد بين البرتغال والفرس.

في بداية شهر ابريل جهز فيريرا اسطولاً جديداً مكوناً من عشرين سفينة كبيرة وعشرين اخرى صغيرة وزود هذا الاسطول باربعمائة من العساكر المحليين واقام دوائر للجمارك في سواده وبركة، وجسور، وعلوه، وسيفين وبعد زيارة خورفكان ودبا وصل الى لما.

كانت القلعة في لما عالية ومحصنة وتسكنها حامية فارسية يبلغ عددها اربعمائة رجل قاموا باطلاق النار على الاسطول البرتغالي من بنادقهم فقتلوا ثمانية من الجنود وجرحوا الكثير.

لم يكن من القصف المدفعي لهذه القلعة اي جدوى (لارتفاعها) لذا انزل القائد جنده من البرتغاليين والعساكر المحلية (ثلاثمائة من البرتغاليين، واربعمائة من العساكر) تحت قيادة ضباطه المرافقين ومانويل كاباكو وطلب منهم قطع رقاب الفرس المقيمين في القلعة.

هاجم الجنود القلعة بالقنابل اليدوية وتسلقوا جدرانها وقتلوا من بها دون مراعاة الجنس او الاعمار وهدموا المدينة والقلعة ولم يتركوا حجرا واحدا في مكانه.

فُقد ستة من البرتغاليين واثنا عشر من العساكر المحليين في هذه المعركة، انتقل بعدها الاسطول الى (كاموفة) مارا برأس مسندم في كاموفة استقبل الاهالي فيريرا ورحبوا به حيث كان اغلب المقيمين فيها بحارة سابقين في اسطول هرمز.

بعد التزود توجه الاسطول الى (قصاب) حيث وجدت القلعة فارغة والمدينة خالية من الاهالي الذين هربوا الى الداخل. قرر القائد تحصين (قصاب) حيث أنها واقعة في جهة مقابلة لهرمز ومنها يستطيع مناوشة سفنها وسفن فارس كلها. ارسل فيريرا في طلب اهالى قصاب من الجبال ووعدهم الامان فغادروا الى بلدتهم وابتدأوا في مساعدة جنود الاسطول في تحصين القلعة والتى ما ان تم تحصينها عين فيريرا قائدا لها يساعده عشرون من جنود البرتغال ومائة من العساكر المحليين وبنى داراً للجمارك وعين وكيلا وموظفا فيها.

توجه فيريرا الى (رانوز) وربما الشارقة لمعاقبة شيوخها فقابلته سفن الشيوخ في الطريق (نفس الشيوخ الذين نقلهم سابقا الى هرمز من قشم وكانوا سجناء فيها واطلق سراحهم خان شيراز منها) ـ وابدوا ولاءهم له واخبروه انهم جاءوا لمقابلته لكي ينالوا رضاه.

استقبل فيريرا شيوخ (رانوز) على ظهر سفينته وقدم لهم العمائم المطرزة بعد وجبة الغداء وعفى عنهم وألغى الجزية المفروضة عليهم سابقا وطلب منهم اظهار الطاعة لملك البرتغال والاعتماد على اسطوله لحمايتهم.

من رانوز اتجه الى جلفار (رأس الخيمة) حيث بلغته انباء عن عدم ولاء سكانها للبرتغاليين وعن انقسامهم لمناوئين وموالين لملك هرمز.

ما ان وصل فـيريرا الى جلفار حـتى ساد الامن وعقـد اتفاق مع (سليم الدين أو علم الدين) ابن اخ ملك هرمـز يترك بمقتضـاه فيريرا خـمسين جنديا برتغاليا لمساعدة الحـاكم في ادارة جلفار وتم بناء دائرة للجمارك فيها.

عاد فيريرا بعـدها الى مسقط لكي يبدأ استعداداته للمـعركة الفاصلة مع الفرس.

حصار هرمز وحروب السواحل الفارسية

بعدما اعتقد روي فيريرا ان الامور استتبت له ارسل لويس مارتنيز شيشيرو قائدا لاربع سفن كبيرة وعشر صغيرة الى القريات ورأس الحد لعقاب ساكني هذه المناطق والذين رفضوا الولاء للبرتغاليين مع تعليمات بطلب المزيد من العون ان هو احتاج ذلك.

بعد مغادرة هذه السفن لمسقط ارسل فيريرا في طلب المزيد من السفن الحربية من نائب الملك في الهند وذلك استعدادا لحرب فارسية قادمة.

ارسل باشا البصرة سفينة محملة بالهدايا الى روى فيريرا ومعها رسالة يطلب منه عقد حلف معه ضد الفرس وارسال ست سفن كبيرة لحماية منطقة الفرات التى سوف يهاجمها الفرس ويذكر له انه يشاركه العداوة للفرس حيث انهم احتلوا مناطق من (بابليون) او بابل في نفس السنة التى دخلوا فيها هرمز ويتعهد الباشا بان يدفع كل التكاليف المالية لهذه السفن طالما بقيت في خدمته.

فرح فيريرا برسالة الباشا واعطته احساساً كبيراً بالاهمية، فطلب الاجتماع مع مجلس الحرب واعلن موافقته على امداد الباشا بما طلب وفعلا ثم تجهيز المراكب المطلوبة وعين دوم كونسالو داسلفيرا قائدا لها.

ابتهج داسلفيرا بهذا التعيين وقرر الاستعداد للانتقام من الفرس لما فعلوه في هرمز.

رافق السفن المذكورة مائتان من الجنود البرتغاليين ومعهم ارسل الجواب الى الباشا والذي ابدى فيه فيريرا رغبته الكاملة في التعاون معه واستعداده للاستجابة لاية طلبات منه ترسل الى مسقط او حتى الى

نائب الملك في الهند. وفي يناير 1624 غادرت خمس سفن كبيرة واخرى صغيرة مسقط في طريقها الى البصرة.

بعدها ارسل نائب الملك في الهند عشر سفن كبيرة وثلاثمائة جندي برتغالي ومواد حربية وبارود واقمشة لصناعة الاشرعة والحبال اللازمة ورسالة يقول فيها انه سعيد للحلف التركو ـ برتغالي الجديد.

وصلت السفن المذكورة الى مسقط بقيادة انتونيو فيراو ومعه وصلت انباء استعدادات اخرى لمهاجمة الانجليز في هرمز وان اسطولا من عشر سفن (غلايين) سوف يتوجه الى هناك بقيادة نونو الفاريس بوتليهو مع تمنيات نائب الملك بان تعود هرمز للبرتغاليين مرة اخرى بعون من الله.

في مسقط ابتدأ العمل في صناعة عشر سفن كبيرة وعشرين صغيرة وما ان جهزت هذه السفن حتى اتجه فيريرا ومعه اربعمائة من العساكر المحليين الى رأس مسندم مباشرة الى هرمز حيث ارسي اسطوله مقابل (چورم باغ).

من هذا الموقع ارسل فيريرا اربع سفن كبيرة والسفن الصغيرة لتتوجه (تحت قيادة لويس مارتنيز شيكورو) الى منطقة (بريمو) (براميم) لمهاجمتها (على اليابسة مقابل هرمز).

دخلت العساكر (مدينة براميم) (بريمو) وحرقتها وقتلت ألفين من سكانها الفرس، اطفال ونساء ورجال ونهبت ما بها وقبل مغادرتها حرقت اربعمائة سفينة تابعة لها وتركتها بعد ان خلفت وراءها سبعة قتلى من البرتغاليين وعشرة من عساكر مسقط ـ وفي التاسعة صباحا من اليوم التالي عادت الارماده البرتغالية من (براميم) (بريمو) محملة بالغنائم المسلوبة منها.

بعد عودة هذه السفن ارسلت عشر سفن كبيرة مرة اخرى تحت قيادة لويس مارتنيز وطلب القائد منه ارساء سفنه عند (نقطة كارو) على ان تقوم ست سفن صغيرة بالابحار بين الجزيرة واليابسة للمراقبة وبعيدا عن مدى البنادق الفارسية اتجه القائد مع بعض السفن الى منطقة نصب سيدة النجاة في هرمز وابقى اربع سفن في منطقة جروم باغ ـ وطلب من العشر الباقية مراقبة السفن القادمة من جامبرون لتزويد قلعة هرمز.

وبذا استطاع فيريرا محاصرة هرمز القلعة والمدينة مدة ثلاثة شهور لم يتمكن الفرس خلالها ارسال اي شيء الى الجزيرة المحاصرة.

ومن هنا انطلقت السفن البرتغالية لمهاجمة بندر ريق وكورو وكونج مدمرة هذه المناطق تدميرا كاملا ـ وبينما كان فيريرا في سفينته شاهد سفينة رافعة العلم الانجليزي راسية بقرب بندر عباس (جامبرون) فاتجه مع كل ما تبقى معه من سفن اليها، وابتدأ تبادل القصف المدفعي والذي ادى الى حرق السفينة الانجليزية، بعد انقاذ البحارة الثمانين على هذه السفينة علم فيريرا ان هذه السفينة كانت سفينة نائب قائد الاسطول البريطاني وهي نفسها التى سجن عليها وهرب منها في سورات.

اعدم جميع البحارة ماعدا الطباخ والذي سبق ان ارتبط بعلاقة حميمة مع فيريرا عندما كان سجينا على هذه السفينة من قشم الى سورات وارسلت الرؤوس الانجليزية في اكياس من الخيش الى وكيل شركة الهند الانجليزي في بندر عباس (جامبرون) وكانت الرسالة المرفقة

تقول هذا انتقام للعساكر الثمانماثة والذين قام الانجليز بتسليمهم الى الفرس لقتلهم (بعد سقوط جزيرة قشم) ومخالفة الوعد بارسالهم الى الجزيرة العربية.

قام لويس مارتنيز شيكورو بحرق وتدمير قلعة (بركو) وما حولها وانتونيو مورو دي اوليفيرا دمر قلعة بندر ريق ومدينتها. بعد هذه الاحداث والمعارك عاد فيريرا الى مسقط مرة ثانية.

دائرة الجمارك في كنج

اصبح اسم فيريرا يتردد في السواحل الفارسية وتخافه الناس اكثر من الشاه نفسه ويخشاه الكبار والاطفال، ومع رؤية اي شراع في البحر كان الخوف يدب في القلوب اذ ربما كان ذلك شراع روي فيريرا.

ومع شيوع اسمه امتد هذه المرة نشاطه الى البحرين وعقد حلفا مع باشا القطيف لمنع الفرس من الغوص في مغاصات لؤلؤ البحرين.

في نفس السنة ارسلت رسالة من شاه فارس الى فيريرا يطلب فيها عقد هدنة لمدة عام كامل يختار خلاله فيريرا الميناء الفارسي الذي يرغب فيه ليكون مركزا ودائرة للجمارك البرتغالية على الساحل الفارسي بشرط مناصفة المدخول بين البرتغال وشاه فارس.

ومن هذا الميناء سوف تقوم السلطات البرتغالية باصدار شهادات المرور للسفن الفارسية حتى لا تتعرض لها سفن البرتغال.

ارسل فيريرا جوابه الى الشاهنشاه موافقا على اقتراحاته ولكن مع وقف التنفيذ حتى ابلاغ نائب الملك في الهند.

واختار فيريرا ميناء كونج ليكون ميناء برتغاليا لا يتم التعرض له حتى ولو ابتدأت الحرب من جديد والتى ربما حدثت بعد مضي عام الهدنة. او استخدم كقاعدة لمهاجمة هرمز.

مع طلب شرط آخر وهو ابقاء اربعة من اشراف او نبلاء فارس في مسقط رهائن لدى البرتغاليين من اجل ضمان الاتفاقية. طلب القائد فيريرا من الرسل الفرس ان يعودوا له بالجواب في مدة اقصاها خمسة عشر يوما اذ سوف يكون في انتظارهم قرب جزيرة لاراك.

واذا لم يتلق أي جواب على ذلك فسوف يبدأ الحرب عليهم من جديد.

وافق الشـاهنشـاه على مطالب فـيـريرا وطلب أن يعطى مـهلة اياماً معدودة لـلرد على (امكانية استخـدام كونج لمهاجمـة هرمز) وارسل مع هذا الرد سفينتين محمـلتين بالمؤونة والهدايا. وابلغ فيريرا انه في الوقت الحالي يمكنه استخدام بندر عباس (جامبرون).

في هذه الفتـرة المذكورة لاحت في الافق ثمانـي سفن هولندية واربع انجليـزية ترافقـها ثلاث فـارسيـة قادمة مـن ميناء سـورات يتعـقبـها الاسطول البرتغالي بقيادة نونو الفريز بوتيلهو.

انفصلت السفينة ساوسباستيـو عن سفن القائد فيريرا وجذبها التيار الى اطراف قلعة هرمـز فارسل القائد سفـن الانقاذ لمساعدتهـا علما منه باحتـمال تعرضـها لهجـوم مدفعي من السـفن الانجليزية القـادمة من سورات. وفعلاً وكما توقع فيريرا قتل القصف المدفعي الكثير من الجنود البرتغاليين على ظهر هذه السفينة وهشمت ذراع قائدها (انتونيو تيليس دي منزيس) بواسطة قذيفة مدفع.

توجه القائد فيريرا تجاه سفـينة القيادة وسفينة نائب القائد الهولندي بقصد مهاجمتها فوجد ان سفينة قيادة الارماده (سفينة نونو الفريز) قد سبـقته الى الموقع. هنا طلب نونو الفـريز من فيريرا ان يقوم بمسـاعدته في جذب سـفينته الى مـوقع قريب من السفـن الهولندية دون ان يدرك الاول انه يتحدث الى القائد الى ان نبهه احـد جنوده فقدم اعتذاره وامتد الحديث بين الاثنين في هذا الموقع الخطر.

مع استمرار المعركة بين السفينة سـاوسباستيو وست سفن انجليزية

اشتركت السفن الفارسية المرافقة والاخرى القادمة من بندر عباس (جامبرون) في المعركة.

هنا قرر فيريرا مهاجمة الفرس في البداية، وفعلا تم حرق سفينتين قادمتين من جامبرون وهربت سفن انجلترا وفقد الانجليز والهولنديون ثقة الفرس فيهم.

انتهت المهلة المطلوبة للشاه فارسل موافقته بوقف اطلاق النار واعطاء صلاحيات الجمارك للبرتغاليين في كونج وابتدأت سنة من السلام والامن.

انشاء جمارك كنج

عاد فيريرا في شهر ابريل الى مسقط وارسل من هناك نص الاتفاقية الى نائب الملك في الهند وابلغه ضرورة الموافقة وانشاء دائرة الجمارك المذكورة لما لها من فوائد مالية للخزانة الملكية.

في نفس الفترة ارسلت خمس سفن كبيرة الى (مضيق مكة)، مضيق باب المندب بقيادة انتونيو فيراو لمعاقبة عرب الساحل هناك ومصادرة كل ما تحمله سفنهم وحرق الباقي مع بحارتها واعفاء من يحمل رخص السفر البرتغالية فقط.

كان القصد المبيت من هذه العملية ان تقوم هذه السفن العربية بدفع الضرائب الى جمارك البرتغال عند مدخل المضيق او شراء الرخصة البرتغالية. بعدها توجه انتونيو فيراو الى منطقة (خشن) مقابل جزيرة سوقطرة لمساعدة ملكها اذا ما احتاج مساعدة منها الى عدن لاستعراض القوة البرتغالية فيها.

ارسل فيريرا رسائل الى الهند يطلب فيها من السفن البرتغالية ان تتوجه الى هرمز دون خوف حيث انه قد طرد الانجليز من المضيق وانهم (اي البرتغاليين) عليهم الابتعاد عن السواحل تحاشيا لملاقاة السفن العائدة الى سورات. عاد الاسطول المرسل الى مساعدة باشا البصرة واخبر قائده القائد فيريرا بما قام به من اعمال هدم ونهب وقتل تجاه الفرس ومنعهم من عبور نهر الفرات. وفقدانه ستين مقاتلا بين ميت من الامراض وجراح المعارك.

لقد استطاع اسطول البرتغال مساعدة باشا البصرة في رفع الحصار

الفارسي عنها وهزيمة (امام قلي خان) وانسحابه من هناك وقد اعترف باشا البصرة بمساعدة البرتغاليين وفتح الموانى لتجارتهم هناك.

وافق نائب الملك في الهند على عقد الهدنة وتوقيع اتفاق إنشاء مركز تجاري في كونج، لذا توجه فيريرا في عشر سفن كبيرة واربع اخرى صغيرة الى ميناء كونج وارسل الى والي بندر عباس (جامبرون) للحضور الى قلعة كونج لتوقيع المعاهدة.

جاء والي جامبرون الى كونج واستقبل باطلاق المدافع حيث انه شخصية مهمة وتتبعه كل المناطق الواقعة من رأس جسك الى بندر نخيلو.

وبعد مأدبة الغداء عرض فيريرا توصيات نائب الملك في الهند وقام مرافق حاكم جامبرون بالترجمة وبعدها اضيفت فقرة تقول انه اذا ما تم مصادرة اية سفينة برتغالية من ميناء كونج او متوجهة اليه او قادمة منه بواسطة السفن الهولندية او الانجليزية فإن على حاكم جامبرون التعهد باعادتها الى البرتغاليين دون فقدان اي شيء منها.

تبادل حاكم جامبرون والقائد فريرا الاتفاقيات وترجماتها ووصل بعدها النبلاء الفرس الاربعة المطلوب بقاؤهم في مسقط (كرهان لحسن النية) وتعرف عليهم (ملك هرمز المتوج والمقيم في مسقط) واخبر القائد بأنهم فعلا من النبلاء.

هنا قام القائد بتعيين ممثل لتجار البرتغال وموظف لدائرة جمارك كونج واعطاهم ختم القوات الملكية البرتغالية من اجل استخدامه في اصدار التصاريح للسفن الفارسية. بعد افتتاح دائرة الجمارك تم ارسال رسالة الى باشا البصرة يعرض عليه فيريرا تواجده الشخصي فيها اذا ما تطلب الامر ذلك.

وفاة فيريرا اندرادي

قام فيريرا بتحصين مسقط ومداخلها ونصب المدافع الكبيرة حول قلعتها وخارجها وبناء الابراج في قمم الجبال ووضع المدافع في الابراج المهمة منها.

ابتدأ جمرك كونج في ارسال العائدات المادية (200,000 كروزيدوس لخزينة الملك في السنة) واصبح مركزا تجاريا مرموقا لكل التجار. ومع استمرار عملية تحصين مسقط وصل طلب مستعجل من نائب الملك في الهند يطلب فيه العون البحري السريع للقائد الدوم فرنسيسكو دي مورا والمتوجه الى قلعة ممباسا لاسترجاعها وفعلاً تم ارسال اربع سفن بجنودها ومؤونتها الى هناك.

عاد انتونيو فيراو من جولته في مضيق باب المندب وكانت سفنه محملة بالغنائم المسلوبة واخبر القائد بانه قد احرق ست سفن وصادر واحدة واحضرها الى مسقط من عدن ووقع اتفاقية مع حاكم مصوع (ميناء الحبشة) ومع اهلها الذين (يسكنون بيوت القش).

عاد كذلك الى مسقط دوم كونسالو دي سلفيرا وكان قادما لتعيينه قائدا لمضيق هرمز.

وصلت اشارة اخرى من نائب الملك تطلب حضور كل السفن المتواجدة في مسقط الى جوا من اجل ارسالها الى قلعة الهولنديين في باليات قرب ساحل مليابور.

في بداية يناير 1631 توجه فيريرا الى جوا يرافقه ثلاثمائة وعشرون جنديا من خيرة جنود البرتغال على ظهر ثماني سفن كبيرة تحمل اقوى مدافع اسطول البرتغال.

وصل الاسطول المذكور في الثاني من فبراير 1631 الى جوا (وكان يوم عيد سيدة النجاة) وارسى سفنه مقابل قلعة (اجوادا) وسط استقبال مهيب من اهالي جوا.

ارسل نائب الملك أمره الى فيريرا بالنزول الى البر، وهنا تقدم الى استقباله كل اشراف ونبلاء وتجار جوا لما قدم هذا القائد للتاج البرتغالي من خدمات جليلة، وكان ضمن الحاضرين شريف المدينة والذي رافقه الى القصر لاستقبال آخر من قبل نائب الملك والذي اجلسه بجانبه على كرسي مماثل لكرسيه.

بعدها توجه فيريرا الى دير القديس اغسطين حيث قام بزيارته الناس والرهبان وكل من فاته الاستقبال في الميناء.

في شهر مارس 1631 ضرب الموت قادة البرتغال فأودى في البداية بنونو الفاريز في ملقا حيث اندحر اسطوله وتحطمت اغلب سفنه وتوجه الباقي الى الصين.

ونتيجة لذلك ألغى نائب الملك مشروع مهاجمة قلعة الهولنديين وطلب من فيريرا العودة الى مسقط ـ حيث وصلها في شهر مايو 1631.

في سبتمبر 1633 اصيب فيريرا بالحمى وتضاعف أمرها مع اصابته بالاسهال الشديد والذي ادى الى وفاته.

وبقيت انجازاته وخلد اسمه في حوادث الخليج وسواحل فارس، وكان بوفاته قد خسرت البرتغال ثالث قائد فذ من قادتها البحريين فقد توفى قسطنطينو دي سانورونها في 5 أغسطس 1630 في سيلان وفي 6 فبراير 1632 توفى نونو الفاريز بوتيلهو في ملقا وفي سبتمبر 1633 فقد روي فيريرا اندرادي في مسقط.

دفن فيريرا في كنيسة القديس اغسطين تحت قاعدة المذبح الكبير في قبر محاط بالطوب.

دفن هذا القائد في قبر عادي ولم يتكفل احد من اصدقائه بنصب حجر فوقه او حتى كتابة اسمه كي يكون معلما للاجيال القادمة ودليلاً على ضريح هذا القائد العظيم.

الفهرس

هناك حقب، أو بمعنى أصح، فجوات في تاريخ منطقة الجزيرة العربية والخليج، لا تزال معرفتنا قاصرة عنها، ليس لسبب عدم توفرها، ولكن لسبب عدم توفر الباحثين المهتمين بهاجس التاريخ، هاجس شخصي، هاجس يؤرقهم، للبحث في استكمال هذه الحقب، أو هذه الحلقات، أو هذه الفجوات في تاريخ المنطقة.

وتاتي سلسلة مطبوعات الأيام التاريخية لتحاول كجهة نشر، تحمل هذا الهمّ التاريخي، ولتساهم بشكل متواضع في خلق توجه عام للاهتمام بهذا الاتجاه في النشر في منطقتنا، ولتخلق وعيا متجذرا لدى القارىء إزاء تاريخ المنطقة.

وتاتي سلسلة كتب الموسوعة البرتغالية من ترجمة وإعداد د. عيسى أمين لتشكل محورا من هذه المحاور التي نريد أن نرسخها من خلال هذه الأعمال التاريخية، التي تحاول أن تقدم الى عشاق التاريخ، ومحبي المعرفة، جزءا من المعرفة، لم تكن غارقة في البحور مثلما غرقت كثير من السفن، ولكنها كانت غارقة في لغة أخرى، وفي خزائن معرفة أخرى.

وتأتي هذه السلسلة لتحاول نقل هذه الكنوز من المعرفة الى لغتنا، والى تاريخنا، والى رؤيانا المعاصرة لتلك المرحلة، والتي أوصلتنا الى ما وصلنا إليه في هذه النقطة الراهنة من تاريخ الخليج المعاصر.

الناشر